العَائِد أخيرًا

(رواية)

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مؤسسة الرسالة

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٣١٩٠٢١ - ٨١٥١١٢ ص.ب ٧٤٦٠ برقيا، بيروشران

obeikandl.com

العائد أخيرًا

(رواية)

تأليف
فوزي صالح

مؤسسة الرسالة

obeikandl.com

هـذه الـروايـة لـيـسـت سـيـرة
ذاتـيـة بـقـدر مـا هـي تـبـيـان وكـشـف
لعـالم وهمي يـعيش عـلى جـوانبـه ويـستـنشـق
تـرهـاتـه وخيـالاتـه السـامـة قـطاع عـريض ومؤثـر
جـدوا فيـه التعـويض والعـزاء عن الـواقـع المعـاش
في ظـل الحـالـة الاقتصـاديـة المتـرديـة على كـافـة
أصـعـدتهـا حـتى أصـبحـت علة تـسـتـلزم مـنـا
الـعـلاج الـفـوري

obeikandl.com

منظور حركي على طول الخط
حتى نقطة الانحراف

من أحشائها المهلهلة يخرج رجالها ذوو الأرجل المشققة والكروش التي تكاد تندلق من ثقل حمولتها، والوجوه الصفراء الملبَّدة بغيوم كانون فجر معظم الأيام بعد أداء الفريضة وحمد الله الذي حباهم الحياة يوماً جديداً.

عيونهم محمَّرة متعبة
لا من قلة النوم وإنما من غلبة الرمد
ترتاح بين ثنايا أسمالهم فصائل شتَّى من الحشرات الماصة للعافية

كل آمالهم في لوزة قطن سوف تتفتح
أو عود ذرة ظهرت تباشير أثماره
أو سنبلة في سبيلها إلى التكوُّن
مؤونتهم اليومية رغيف مقدَّد مغمَّس في (المِشْ)
بصلة غشَّاها العطن

كوز ماء عكر تسرح فيه البلهارسيا وتمرح
أيامهم تتكرر برتابة مملة

لكنهم صابرون. . .
في انتظار غَلَّة المحصول الموزَّع سلفاً على البقَّال والحلاَّق والقمَّاش وجزَّار المواسم وشونة الحكومة.

تنفق لأحدهم بهيمة فتُنصب المندبات وتُشق الجيوب
عوَّضك الله في الولد

الولد!!
بنو آدم أكثر من الهمِّ على القلب
أما البهيمة فكيف تُعوض؟؟؟

تلك القرية القابعة بكسل وتراخي وسط دلتا النهر القديم قدم الأزل، تخشى ثورته وترغبها في آن واحد. . .

هذا التناقض الموزَّع بين الرغبة والخوف أكسبها تلك الشخصية الممسوخة المستسلمة المتقلِّبة

ينزرع الفرد في عمله الرتيب دون أن يُعمل تفكيره في أيِّ شيء آخر يكسر هذه الرتابه يطرق الجديد الأبواب فتهب في وجهه جيوش العادة والخوف من المغامرة لدفعه وإزاحته خشية من التغيير وجهلاً ـ الذي نعرفه خير ألف مرة من الذي لا نعرفه!!

سُكُون كالموت
أحياءٌ ميِّتُون بالوراثة

تنقلب الدنيا من حولهم رأساً على عقب دون أن يتحركوا عملاً بحكمتهم الشوهاء:

السكون جُنَّة...

إيه أيتها الميِّتة الحيَّه

متى النشور؟؟

.....

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

محمد الأول

obeikandl.com

obeikandl.com

لولا عمامته وجلبابه المفصَّل بطريقة غير مألوفة لما اهتمُّوا بالأمر. . . صحيح أن لونه النحاسي وجسمه الفارع ولهجته الأقرب إلى لهجة البدو غريبة على أهل الناحية، لكن القرية مفتوحة أمام الغرباء يمتزجون سريعاً بأهلها بدون أن يُسألوا من أين جاءوا.

قالوا إنهم وجدوه يجلس على كرسي من الجريد أمام بيت لم يشاهدوه قط قبل ذلك اليوم.

طراز البيت الذي ابتناه في ليلة كما يقولون غير الطراز السائد. . .

النمنمات المحفورة على أعمدة المدخل الخشبية

ألوان الجدران ذات الملمس الزبدى

السراج التحفة المعلَّق بسقف المدخل

أشجار الياسمين الممتدة على السور الخارجي والتي نمت بسرعة مذهله. . .

أما لماذا اختار هذه الخرابة بالذات ليقيم فوقها البيت فقد تعددت حولها الآراء.

قال أحدهم ـ مشهود له إتقان حفظ وتمثيل سيرة الزير سالم وأبي زيد الهلالي ـ أن كنزاً مطلسماً موقوفاً لأحد الصبية اليتامى مدفون تحتها من قديم الأزل ولم يحن أوان كشفه لأن الصبي لم يشب بعد عن الطوق لينتفع به، وخوفاً من أن تمتد إليه يد غريبة أُمر خادمه أن يسكن فوقه ليحميه.

وقال آخر: ليس الأمر كذلك، فقد سمع من جدٍّ له طاعن في السن أن الخرابة مسكونة بأشباح مردة تحرس باب السرداب السري الذي يصل الأرض والعياذ بالله بالعالم الآخر السفلي، وخشية من افتضاح الأمر للشياطين من بني آدم كان ما كان. ولأن البيت بدا عليه القدم فقد همس مُعمِّرٌ ضرير لمرافقه بعد أن قرأ المعوذتين مائة مرة أنه ـ أي البيت ـ سُحب بحاله من خلال فتحة السرداب المخفية ونُصب فوقها، وأعاد رواية قصة شجرة التوت التي رآها بعينيه تخرج من باطن الأرض على رأس حقله القبلي بفروعها وورقها وتوتها...

أما هو فلم يكن يبدو عليه أدنى اهتمام بما يدور جهاراً بين الأهالي ودأب على الجلوس أمام بيته كل صباح لساعات معلومة يختفي بعدها ولا يظهر إلا في نفس الموعد.

«سالم بن حليس» ذهب ليسقي أرضه فجراً، فوجد الأرض البور المجاورة لها مزروعة بالليمون والنارنج

والبرتقال، اعتبر الأمر خدعة شيطانية فاستعاذ ـ بالله وقرأ بعض قصار السور التي يحفظها مناعة وعاد.

في الصباح ذهب ليطمئن قلبه المخضوض فوجد الليمون قد أزهر، وسمع آلاف العصافير تزقزق آمنة مطمئنة بعد أن رجعت بطاناً من رحلة رزقها الصباحي ارتَّد مدهوشاً ومات في اليوم ذاته.

مشى الغريب في جنازة «سالم» المقطوع من شجرة وتقبل العزاء نيابة عن أولاده ـ القُصَّر ـ كأخ شقيق.

قيل أن «سالم بن حليس» خرج قبل موته بساعات وعاد بعد فترة وجيزة وكان وجهه مقلوباً للخلف، ولوحظ أنه يمشي بظهره عكس خلق الله وهو يردد «حقٌ حق» وأجمع كل الذين شاهدوه أنه لما وصل أمام بيت الغريب انتفض بدنه والتفت بذعر فخرجت حمامة حمراء كبيرة حطَّت فوق رأسه وأخذت تردد معه: حق حق.. ولم تفارقه إلا عند باب بيته.

أما الذين تولوا غُسْلَه وتكفينه فقد أشاعوا بين العامة أن رأسه كانت تدور كالرحاية، وأنه أخرج لسانه لهم عدَّة مرَّات، ولم يسكن إلا بعد أن حشوا فمه وعينيه بالتراب.

. . . . . .

. . . . . .

بعد انتهاء عِدَّة «هَنُومة» زوجة «سالم الممسوس» شوهدت تكنس وتمسح وترش الماء أمام بيت الغريب الذي لم يحنِ أوان خروجه اليومي... زمَّ الناس عجباً شفاههم ولم يعلِّقُوا، أمَّا هي فقد رأت أن عملية زمِّ الشفاه والمصمصة زادت عن حدها فقالت لنفسها: لا مفر من البوح بالمستور...

صعدت إلى سطع بيت الغريب... حلَّت منديل رأسها وزعقت في الملأ:

أنا زوجة «محمد الصالح» على سنة الله ورسوله يا همج... رعى أولادي وأرضي وأعطاني ما تتنشق عليه زوجة أي فحل فيكم... عشرين سنة أدور كالتيس في طاحونة سالم... بهيمة في النهار والليل... لا (هدمة) نظيفة أستر بها لحمي ولا لقمة (هنية) أرم بها عظمي... سترني الصالح بعد أن نشف عودي من المش والسريس... روحوا لا أراح الله قلوبكم... موتوا في جلودكم من الغيظ...

. . . . . .

. . . . . .

اشتهاها كل من رآها وهام بها شعراء شعبيون ورواة وأطفال

وعُقدت من أجلها مجالس سرية ضمَّت مسنين وكهولاً وشباباً

وبسببها أدمن عددٌ لا بأس به النشوق المخدِّرة فخرِّبت منازل كانت عامرة وبيعت أطيان وحلي عزيزة وأدوات زراعة وبهائم وانتشر التعامل بالربا فعمرت بيوت وانتفخت جيوب ـ للأمانة والتاريخ لم تسجل في تلك الآونة أي حالة من حالات الانتحار، ولم يذكر أن إنساناً رمى هنُّومة بسوء السلوك، أقسى ما قيل في حقها أنها فتنة ابتلي بها الخلق.

أحد الناس وقف بعد صلاة الجمعة وزعق في المصلين قائلاً:

كانت الفتنة نائمة فأيقظتها الغريبة... يشهد الله أنها لم تأت بمنكر... العيب إذن ليس فيها ولكنه فينا نحن الذين أسلمنا قلوبنا وعقولنا للشهوة المحرمة في كل كتاب فأحرقتنا، فليغلق كل منا بابه الذي فتحه، وليتق الله في ذراريه ونفسه، اللهم قد بلَّغت فاشهد... اللهم قد بلَّغت فاشهد...

بعدها حلَّت عليه اللعنة فهام في المزارع معاشراً الغربان والحدأ والذئاب والثعالب أربعين سنة لم تتغير خلالها ملامحه الأولى ثم اختفى بعد ذلك نهائياً، أما اسمه وعمله وأصله فلا يتذكره إنسان، الشيء الوحيد المتواتر عنه بين الأجيال المتعاقبة أنه أوَّل من زمَّ شفتيه عجباً عندما شاهد «هنُّومة» في بيت الغريب، وأول من نبش واكتشف امتلاكه لسبعة أفدنة وعشرين قيراطاً في زمام الناحية مسجَّلة

تبعاً للأصول في دفاتر الملكية الخاصة بالجمعية الزراعية إرثاً عن أبٍ لم يره أو يتعرف على اسمه أحمد.

حكى صاحب للنبَّاش هجر القرية بعد حلول اللعنة بصاحبه خوفاً من أن تصيبه هو الآخر أن النبَّاش همس في أذنه قبل التحوُّل بيوم واحد قائلاً أنه بحث عن أصل وفصل الغريب فعرف سرَّه وقصة هروبه بعد ارتكاب جريمة قتل في بلدته الواقعة بين الجبل الأصفر البعيد وفرع النهر الشرقي بسبب علاقة مشينة كانت تربطه بزوجة القتيل، وأنه تعلَّم السحر على يد شيخ مغربي أثناء إقامته في الصحراء الممتدة وراء الجبل، وهو الذي نصحه بالنزوح إلى القرية لسبب غير معلوم ولقَّنه بعض الحيل ليشغل الناس بها فلا يتعرضوا له، أما البيت الذي قيل أنه ابتناه في ليلة فلم يكن بيتاً وإنما عشة من الجريد سحرها فبدت في أعين الناس بناءً كبيراً، وقال أن المرأة سبقته إلى القرية لتهيئة الجو، واستطاعت بحيلها وجمالها المدهش أن تستميل قلوب الناس إلى أن تمكَّنت من إيقاع «ابن حليس» في شباكها وتزوجته تغطية للأمر.

وهنا يجب التحقق من صدق هذه الأخبار، فمن المعروف أن الجمعيات الزراعية نشأت في فترة زمنية لاحقة، وهناك غموض يكتنف الفقرة الخاصة بهروب «محمد الصالح» وتعلمه السحر وقدومه إلى القرية بعد أكثر

من عشرين سنة، إذ جاء على لسان «هنُّومة» ـ أو زوجة القتيل كما قيل ـ أنها ظلت على ذمة «سالم بن حليس» عشرين سنة كاملة، ولا نعرف من أين استقى النباش معلوماته حول هذه النقطة، ولماذا لم ينشرها في حينها بين الناس؟؟؟

والدليل الذي نسوقه لدحض هذه الأخبار أن البناء الذي ادعى أنه مسحور ظل قائماً إلى زمن قريب وسكنته ثلاثة أجيال من نسل الرجل بعد موته ولم يعروه أي تغير، ولكننا بالمقابل لا يحق لنا فنياً على الأقل أن نتجاهل تلك الرواية.

* * *

تلك الليلة ليست ككل الليالي...

صفارات مدوية، وعسكر نوبيون يمتطون النوق من ضفة البحر الكبير وحتى قنطرة الزناتي[1] مروراً بوسط البلد...

---

(١) : الزناتي شخصية حقيقية عاشت وماتت في البلدة، كان الرجل كما يقولون يتمتع بقوة خارقة، بعض الناس يخلطون بينه وبين الزناتي خليفة صاحب الملحمة الشعبية المعروفة لكنه غيره، أما آخر ذريته فقد هاجرت إلى الجنوب أيام بناء السد العالي وانقطعت أخبارهم، وقد سميت القنطرة باسمه عرفاناً بفضله، إذ أن صخرة كبيرة اعترضت العمال أثناء حفر الترعة الموجودة للآن في نفس المكان وكادت تعيق اتمام المشروع الحيوي برمته، =

تفرقع كـرابيجهم ـ السودانيـة ـ في الحارات الضيقـة فتحيل النوم الرابض في عيون الكادحين إلى أمنيه. . .

انكمش الأطفال في حضن أمهاتهم من الفزع، وتردد الرجال في الخروج، لكنهم تجرأوا وصعـدوا إلى أسطح المنازل الطينية القميئة متخفين وراء عيدان الحطب.

قال كبير العسكر: أين العمدة؟

في لحظات كان أمامه مرعوباً يفرك عينيه المحمرتين بيد وباليد الأخرى يصلح وضع الطربوش[٢] على رأسه. . .

لكزه في جنبه لكزتين وقال: صح النوم يا حضرة. . .

فرد ورقة صفراء بين كفيه وقرأ:

أوامر علياً من جناب حكمدار الإقليم:

لُوحظ في الآونة الأخيرة إزدياد حوادث القتل وتسميم المواشي وحرق الدور وتقطيع الزروع مما أدى إلى انعدام الأمن وانخفاض غلة الطين في ظل العمودية الحالية. علماً بـأن البلد في حالـة حـرب ضـروس لا يعلم إلا الله متى ستنتهي، وعليه فقد أصدرنا نحن الحكمدار بعد التشرف ـ

= فما كان منه إلا أن رفعها رفعا بين يديه ورماها خارج مجـرى الترعة واستُخدمت فيما بعد كقنطرة.

بلطائف شفاهية من الحضرة السنية الخديوية أعزها الله وحفظها زخراً للبلاد والعباد الآتي:

* يُسحب السلاحليك والخفر بكامل عدتهم

* التليفون الميري بكامل توصيلاته الظاهرة والمخفية... الختم الميري... الريشة والمحبرة ودفتر الأحوال وكافة ما يتصل من قريب أو بعيد بالوظيفة من حضرة العمدة الحالي.

* تسلم الأدوات والمهمات السابق ذكرها بعد جردها ومضاهاتها بدفتر العهدة ـ طرفنا ـ للشيخ «محمد الصالح».

* يُعين حضرة المذكور آنفاً عمدة ساعة تاريخه بصفة استثنائية وترفع الإعاشة الشهرية المقطوعة لحضرته من ثلاثة جنيهات ذهبية إلى خمسة[٣].

(٢ ـ ٣): أصل الطربوش معروف، لكن أحد الأزهريين الثقات من المعاصرين لتلك الآونة غضب غضبة شديدة بعد أن قرأ ما سبق وقال زاعقاً: أنتم تلفقون أحداثاً على هواكم وتكذبون على الناس والتاريخ، على حد علمي واحتكاماً إلى النظر والذاكرة لم أر عمدة للبلدة يلبس طربوشاً ولكنهم جميعاً بلا استثناء لبسوا العمامة، حتى آخرهم رغم تسلمه العمودية صغيراً لم يشذ عن القاعدة، أما مسألة الإعاشة الشهرية للعمدة فلم تكن موجودة في ذلك الزمان وإن كانت هناك امتيازات أخرى لا تستجلب العار مثل مسألة الإعاشة هذه... من شروط العمودية يا سادة أن لا تقل ملكية المرشح لها سهماً واحداً عن عشرة أفدنة من أجود:

* يُنفذ التسليم والتسلم فور الانتهاء من بنود الأوامر.

إمضـــاء

(حكمدار إقليم الغربية)

* * *

ابتسم «محمد الصالح» بتحفظ ثم صاح في الـرجال المندسين بين عيدان الحطب:

ـ ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم...﴾

التفت ناحية كبير العسكر وقال:

اسمحوا لي يا سادة بتعليق... رغم أحقيتنا الشرعية بهذا المنصب الذي سُلب منَّا سلباً بعد غيبتنا الصغرى إلا أننا سنكتفي حالياً بمشيخة البلد درءاً للفتن والبغضاء بعد الموافقة على شروطي التالية:

* تُورَّث المشيخة لخلفي من بعدي.

* أمشي في الجنازات والأفراح وخَلَفِي من بعدي على يمين العمدة لا خَلْفه كما اعتاد.

* يَصْدُرْ (فرمان) رسمي بإعفائنا نهائياً من الخدمة في الجهادية بدون دفع أي بدل إلا إذا طلبنا ذلك كتابة أو في

= الأراضي الزراعية ولا يخفى على الأفهام المغزى من ذلك... أما التليفون فلم يدخل إلا في زمن قريب... هذه أكاذيب يجب أن تُرفع فوراً.

مـواقف تمس سيادة القـطر ـ لفظهـا بـأسى ـ وتحتم على الجميع بلا استثناء المشاركة في دفعها.

* يتم توزيع كوبونات الملح والقماش على الأهالي عن طريقنا دون سوانا. . . ـ لوحظ عند هذه الفقرة انخطاف لون العمدة.

* يُعَامَل دوَّاري رسميّاً كدوَّار العمدة.

. . . . . .

فرد كبير العسكر جسده «انتباه» خبط قدمه اليمنى في الأرض خبطتين ـ لا يحدث هذا مطلقاً إلا لرتبة أعلى ـ قال:

نحن طوع بنانك. . . شروطك فرمانات يا محمد بك جنحاني. . .

قالها بهمس، وليس هناك تأكيد ما على أنه لفظها هكـذا بتلك الحروف التي استقبلتهـا الآذان المتصنتة وأذاعتها في لمح البصـر بين الأهـالي الـذين اختلفـوا حولها. . .

. . . . . .

. . . . . .

* * *

قـال الذين أصـابوا قـدراً من العلم في المدارس أن اللفظة غير عربية ولا تعني شيئاً على الاطلاق، ومن الجائز

جداً أن كبير العسكر لفظ أخرى مفيدة حرَّفها العامة بجهلهم.

أما الذين درسوا بعضاً من أصول التفسير والفقه فقد أدلوا بدلوهم قائلين: إذا قطعت الكلمة إلى المقطعين: جَنَحَ - آني، فإن جنح تعني: مَالَ وبابه خضع.

وآني - بصورتيها - تعني: أدرك أو حان وقرأوا قول الله تعالى: ﴿غير ناظرين إنَاه﴾، فالكلمة بمعناها البعيد قد تعني: صاحب الأوان أو الذي جاء أوانه. أما إذا قطعت إلى: جن - حاني، فيكون معناها: جن رحيم ولا تناقض في ذلك البتة، واستشهدوا ببيت الشعر القديم:

فَقَسَا ليزدجروا ومن يكُ حازماً
فليقسُ أحياناً على مَنْ يرحمِ

وفي الحالتين فإن مدلولها يعني أن الرجل مشمول بعناية أقوى، وبنوا فرضهم على أساس موافقة كبير العسكر على شروطه رغم إهماله وتجاهله لطائف الحضرة السنية الخديوية أعزها الله وحفظها زخراً للبلاد والعباد، وتلك سابقة خطيرة لم تحدث قبل ذلك قط.

أما العوام فلم يلجِ آذانهم غير المقطع الأول (جن) فتثبَّت لديهم زعمهم أنَّه غير إنسيّ...

* * *

يقول المعاصرون له أنه كان ذا شخصية ساحرة أريبة ما عُرضت عليه قضية إلا وحلَّها في لحظتها ببساطة تدعو إلى الدهشة، ورغم جهامته وضخامة جسده المرهبة إلا أنه كان طيب القلب رقيق الحاشية يبش للصغار ويلاعبهم بفرح طفولي ـ عزا بعض قصار النظر ذلك أيامها إلى كونه محروماً من الولد. . .

وقد وصلت أخبار غير مؤكدة تقول أنه شوهد في منزل الزعيم المغبون الذي اتهمه المغرضون بالغفلة أو الخيانة رغم وقفته التي لا تُوصف في مواجهة القصر وبلاؤه العظيم في التل الكبير ـ بعد عودته من المنفى مريضاً منكسراً، ويقال أن الصالح ما أن رآه حتى أخذه بين ذراعيه وبكى.

وقد أرَّخ شاعر القصر الكبير لهذه العودة التي قوبلت بالتهكم والازدراء بقصيدته السقطة التي مطلعها:

صغارٌ في الذهاب وفي الإيابِ
أهذا كل شأنك يا عرابي. . .

حكى معمِّرٌ عاصر ابن تاجر الدخان الألباني الطموح الذي قلب وجه القطر وفرض سيطرته على الأطيان والمصائر بعد القضاء على المماليك في المجزرة الشهيرة، وإزاحة الزعيم الشعبي المناهض لسياسته، واستقدم الأغراب المستشارين بدعوى التنوير ومسايرة العصر، وذريته ذات السلوك المحيِّر التي أكملت خَطَّه وخططه فأُنشئت في

أيامهم القناطر والكبارى وحفرت الترعة الكبيرة التي وصلت البحرين بسواعد الكادحين من أبناء القطر، وأقيمت القصور والقلاع والاستراحات المدهشة والطرق المعبدة المائلة التي عدت قمَّة في هندسة التخطيط فتبارت الدول ذات الطقس الشتائي الدائم في تقليدها بعد أن استوعبت نظرية عملها في سنوات.

مداخلة أولى:

بعد عمل دراسة جدوى حديثة نسبياً لهذه النوعية من المشروعات تبين أنه من الممكن الاستفادة منها في الآتي:

* غسل الشوارع والميادين الهامة بطريقة طبيعية دون استخدام الأيدي العاملة المكلفة للخزينة العامة ـ من الممكن تعميم الفكرة على أماكن أخرى في مرحلة قادمة.

* تصريف مياه الأمطار التي يصل مستواها في بعض المناطق إلى عدة أشبار بجعل المياه تتجمع في جانب واحد منها، فيسهل سحبها وتخزينها لأعوام الجفاف بدون أن تتوقف حركة السير.

* حماية البيوت القديمة من السقوط.

* القضاء بطريقة سهلة ومضمونة على الأوبئة والأمراض والحوادث التي تساعد البرك والمستنقعات على انتشارها وسط المدن والمخططة بطريقة عشوائية.

* الوضع المائل عند الجلوس في المركبات الخاصة يستجلب المتعة للأصدقاء إذ يجعلهم يحسون بالمودة والانسجام والحميمية، كما أنه مفيد جداً للدورة الدموية، وقيل إنه يمنع حدوث الجلطة وتصلب الشرايين.

(استُبعدت القرى والكفور والنجوع على أساس أن سكانها يتمتعون بأجساد حديدية محصنة طبيعياً ضد الأمراض الفتَّاكة والأوبئة، ولأن خلاياهم الدفاعية تطحن الزلط ولا مكان لهم أصلاً في الدراسة...)

* * *

قال المعمر أنه شاهد جيشاً من الفرسان يخرجون ليلاً من الخرابة التي ابتنى «محمد الصالح» فيما بعد عليها بيته واتجهوا إلى الناحية الشرقية من القطر بعد أن استعدى الألباني الحفيد الأغراب الجدد على جيشه الثائر الذي أحرجه زعماؤه بمطالبهم الجريئة على مرأى من الرعاع وقناصل الدول المعتمدين في الميدان العام...

يُحكى أن ملطيًّاً اكترى حماراً
ودار به في كل شوارع وحواري عروس مدن القطر
من أول النهار إلى آخره
ولما طالبه الحمَّارُ بأجره
حقَّره وسبَّه وضربه على قفاه

رأى نفر من أهل المهنة المنظر فثارت الدماء في العروق وطقَّ من العيون الشرر. . .

قالوا فضيحة لن يمسحها إلا الدم

التفوا حول الملطي الأحمر كالنمل وأشبعوه ضرباً وركلاً وخربشة وعضّاً حتى وقع مغشيّاً عليه وفي رواية أخرى ميِّتاً. . .

إلى هنا والحكاية عادية جداً وتحدث يومياً بين الأخوة النابتين في رحم واحد. لكن المسألة تطوَّرت

وتحرك جيش الأغراب المرابط في مراكبه داخل الخلجان بحجة حماية الرعايا الأصدقاء من غضبة أهل المهنة الثائرين.

عافروا طويلاً حتى تمكَّنُوا من احتلال الثغر بعد أن دكَّت مدافعهم الطوابي والقلاع.

صلُّوا على خير الأنام

يا سادة يا كرام. . .

. . . . . .

. . . . . .

مداخلة ثانية:

للقارىء الحق في أن يطرح أية تساؤلات تعن له، وربما يتبادر إلى الذهن هذان السؤالان بصورة أو بأخرى:

* ما علاقة كل هذا بمحمد الصالح؟؟

* ما الفائدة التي يمكن الخروج بها أصلاً من هـذا السرد الطويل، خصوصاً وأن الأحداث التاريخية لهذه الفترة مسجلة بدقة في كتب الثقات من المؤرخين؟؟

لكن المعمِّر لم تفته هذه النقطة بالذات وقال:

كان محمد الصالح على رأس الفرسان ـ قبل استقراره النهائي في الشِعْبَة (منطقة الخرائب بالناحية) وأصل التسمية غير معروف ـ رافعاً راية خضراء كبيرة لم يتبين المكتـوب عليها بالضبط، وللمعمِّـر الحريـة في اختيار لـون وحجم الـراية خصـوصاً وأن هـذه الأخبار لم تـرد في أي كتـاب وثائقي، لكنه تجاهل السؤال الثاني تماماً معتمداً على فطنة القُرَّاء كل حسب امكاناته التأويلية، ولأن الفن في رأيه لا يُفسر ولا يعطي فائدة مباشرة...

(يلاحظ أن المعمِّر لم يصف لباس الرجل ولم يحدد عدد الفرسـان الذين كـان على رأسهم، ونحن متحفظون أساساً على كلمة رأسهم هذه فقد يكون مجرد حامل راية، متحفظون كذلك على الخبر كله إذ أنه مقحم على السياق بطريقة فجَّة وغير مبرَّرة، علماً بأن المعمِّر هو نفسه الضرير صاحب حكاية شجرة التـوت التي أشرنـا إليها في بـداية الرواية وصـاحب الحكايـات المشهورة التي أوردنـاها في مجمـوعتنـا القصصيـة «تغـريبـة بني صـالـح» لــذا لــزم التنويه...)

يقول المعمر يا سادة يا كرام:

لما انسدت الطرق الغربية في وجه جيش الأغراب، انسل في الخفاء، وركب البحر قاصداً الترعة الكبيرة، وجاءته إخبارية من جواسيسه المندسين وسط أهالي القطر أن جيشاً غريباً لا يؤثر فيه البارود أو الحديد انضم لطلائع الأعراب في الشرق، فاجتمع مجلس حربهم الأعلى لمناقشة المستجدات الخطيرة التي لم تكن في الحسبان...

عند هذه النقطة توقف المعمر عن الحكي، ولم يعط تفسيراً لما جَدَّ بعد ذلك من نكبات أنهكت القطر وكبَّلته أكثر من سبعين عاماً.

عدا ذلك لم يتذكر المعاصرون للرجل أية أحداث أخرى مهمة تتصل بحياته في السنوات القليلة التي تلت عملية العسكر...

محمد الثاني

obeikandl.com

obeikandl.com

قالوا أنه من ولد «هنُّومة» تربَّى في بيت «محمد الصالح» وتزيَّا بزيِّه ولسانه وطباعه، وقال آخرون أنه جاء مع أبيه صبياً، ولكنه خبَّأه تقية لغرض لم يفصح عنه قط حتى للمقربين منه بعد عملية العسكر الشهيرة التي حتَّمت عليه الاندماج في أوساط الناس بحكم وضعه الجديد.

لم يره أحد يلعب في الشارع مثل بقية الأطفال، غير أن هناك شهادة لا يعول عليها كثيراً من جار بلغ أرذل العمر تقول أنه شاهده عند صعوده إلى سطح منزله ذات ليلة صيفية حالكة يلاعب أطفالاً خضراً ذوي أجنحة في حديقة البيت الخلفية، وعندما شاهدوه ـ كما يقول ـ فردوا أجنحتهم واختفوا في لمح البصر، وقال أنه أصيب بعدها برعشة زلزلت كيانه ولازمته طويلاً... من لحظتها ـ القول له ـ شعر بشيء غامض لا يمكن وصفه يصده ويمنعه من الصعود إلى السطح ليلاً أو نهاراً إلى أن أقعده الفالج عنوة.

أول ظهوره كان يوم جنازة أبيه المكتظة بوجوه غريبة وردت على الناحية كالنمل لحظة خروج النعش، يمشي

على يمين العمدة كأبي الوجه بادي التأثر. . . نفس العمامة ونفس الجلباب الأنيق الذي حيَّر مقصَّات كل خياطي البلدة وأعياها عند محاولة تقليده، وإن اختلف اللون حتى ظن الناس أنه شُبِّه لهم. لا أحد يعرف بالضبط كيف خرج خبر الوفاة ومتى وأين تمت إجراءات تجهيز الجثَّة، فالبيت لم يدخله غريب قط، ولم يحدث أن سُمع صراخٌ أو ولولةٌ تشي بالحادث كطقوس أهل الريف، أعجب ما في الأمر اتفاق الناس جميعاً على أنهم شاهدوا الجثَّة ساعة غُسْلِها دون أن يحددوا مكاناً أو زماناً بعينه، وقد برز في هذه الآونة تساؤل بدا غريباً، ولم يستطع إنسان يومها أن يقطع فيه برأي فصل. . .

هل يموت الجن؟؟؟

وما طبيعة موته إذا افترض حدوثه؟؟؟

انشغلت القرية ردحاً من الزمن بالتساؤل الذي لم يعرف على وجه التأكيد مُفَجِّره الحقيقي عن زراعتها وواجباتها الحياتية الأخرى، وفتر الاهتمام بقضية الاستقلال ونفى الزعماء وأخبار الثورة التي اندلعت في القطر من أقصاه إلى أدناه، حتى الأطفال بدوا هم الآخرين مشغولين بالقضية التي صارت هماً مؤرقاً، وكلما ظهرت إجابة طلعت أخرى تنقضها حتى افتتن الناس وعم الأرق!!! وأصبح من العادي جداً أن يتقابل اثنان في شارع أو حانوت أو مسجد

فيهمس أحدهما أو كلاهما دون تحية: هل توصَّلت لشيء؟؟ وسط هذه المعمعة برزت إجابة لاقت استجابة وميلاً لدى الأغلبية. قال قائل أَفْنَى عمره بحثاً في الأديان والمذاهب والفلسفات قديمها وحديثها... في الكتب الصفراء وأوراق البردى وأحجار المعابد القديمة:

بما أن كل نفس ذائقة الموت...

فإنه بلا أدنى شك يموت...

وبما أن الجن بحالته النارية ﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾ خارج نطاق الرؤية البشرية المحدودة ـ مع استبعاد الحس من العملية ـ فإننا منطقياً لا نعرف طبيعة موته، فالموت المحسوس ـ المادي ـ لكل ذي رمة مهما صغرت، يدخل في ذلك الإنسان والحيوان والطير والنبات...

وبما أننا لمسنا موت الرجل ـ تجاوزا ـ موتاً مرئياً محسوساً، فهناك ثلاثة احتمالات استخلصتها من بحثي الدؤوب:

* **أن يكون إنساناً**

وهذا الاحتمال يتناقض مع وقائع ظهوره الغربية ومع الملابسات التي تلت ذلك الظهور.

* **أن يكون جنياً خالصاً.**

من المتواتر أن الجن يمكنه التشكُّل بالإيهام على أي صورة وهنا لا يصح أن نطلق على هذه الحالة صفة الموت

والأدق أن نقول (اختفاء). وهذا الاحتمال غير مقبول ـ على الأقل ـ في الوقت الراهن.

* **أن يكون نصف جني.**

بمعنى أنه يحمل صفتي الجن والإنس ـ من المحتمل جداً حدوث ذلك ـ وفي هذه الحالة يكون موته المُشَاهد بصفته الرِّمِيَّة، وهذا أقرب الاحتمالات إلى المنطق والعقل، لكن... هناك نقطة مهمة غابت عنا وهي ورود تعبير الغيبة الصغرى عند حديثه مع كبير العسكر، وما دامت هناك غيبة صغرى فبالضرورة توجد غيبة كبرى، وهذه النتيجة تؤيد الاحتمال قبل الأخير، وهنا يبرق سؤال قد تقوِّض إجابته المسألة من أساسها وتدخلنا في معمعة جديدة:

هل الجثة المدفونة هي جثة.....؟؟؟

يقال أنه لم يكد يكمل الكلمة الأخيرة حتى تحجَّر لسانه وأرعدت السماء وهطل المطر، وسُمع غناء حزين ينطلق من كل صوب... أشجار الجزورين والكافور والتوت وطيور لا يعرف اسم لها... الماء في الترع والهواء وطوب الدور الطينية وقمائن الآجر، وانمحت من الذاكرة تماماً كل محاولة للتكملة أو التأويل، فقد انخرط الجميع في غناء يقطِّع نياط القلب:

تجيءُ في الأوانِ رافعاً مشاعلَ الخلاصِ

تَبِشُّ للأطفالِ والصبايا
وتمسحُ الأحزانَ من قلوبِ مَنْ أحببتْ
تَجِيءُ في الأوانِ أخضرَ العطاءِ جامحاً
تناطحُ السَعْدَانَ والذئابَ والبلادة
وتغزلُ الموَّالَ في الحناجرْ
تَبُصُّ للبعيد.
للذي يجيشُ في الرؤى
يا نجمةً تضوِّي
وتبعثُ الإصرارَ كلَّمَا خَبَا
تجيءُ في اهتزازةِ الثَرَى
في رجفةِ الوليدِ لحظةَ المواجهة
في الساعدِ المعروقِ يعصرُ المعاولَ العقيمة
فيُزهرُ النماءُ في الحقولِ
تُبعث الخصوبة
تجيءُ في الأوانِ... أنت فينا
تجيءُ في الأوانِ... أنت فينا...
..
..
..

* * *

بعد أيام من رحيل أبيه شوهد «محمد الثاني» جالساً على نفس الكرسي الجريد بعد أن أضاف بعض

obeikandl.com

التحسينات الجديدة على المدخل، ويذكر أنه علّق صورة كبيرة لفارس ضخم الجثة يمتطي حصاناً أسحم ممسكاً بيمينه سيفاً طوله عدة أمتار، كتب تحتها:

(ولا كل من لبس العمامة يزينها)

(ولا كل من ركب الحصان خيّال)

وعندما اجتمع بالناس بعد تسلمه المشيخة خلفاً لأبيه، قال أنه سيسير على خطى الراحل مهتدياً بسيرته العطرة ورأيه الصائب في تصريف الأمور، واستشهد في خطبته الطويلة ببعض الآيات الكريمة، وبفقرات مؤثرة من خطبة الفاروق عمر يوم مبايعته بالخلافة.

شاهد عن قرب الأحزاب والجماعات تتطاحن فيما بينها بعد رحيل زعيم الثورة الشعبية المشهورة، والمعاهدات. القيد التي أبرمت مع الأعداء، فلم ينضو تحت جناح أي حزب، وجعل جُلّ همّه نصرة المكدودين الذين مص الكبار ومُدَّعُو السياسة دماءهم وعافيتهم.

كانت القرية منقسمة إلى جماعتين متنافرتين متحاربتين، جماعة تناصر (السعديين) - بعد انفصالهم عن الحزب الأم - وعلى رأسهم عائلة «الطلايلة» المعتمدة على كثرة عددها ومصاهرتها لبعض إقطاعي ذلك الزمان، وجماعة «الوفديين» وتتزعمهم عائلة (الشواينة) التي تدّعي انتسابها لآل البيت (دخلوا القطر كما يقولون مع رأس

الحسين الشهيد فراراً من ملاحقة يزيد وجنوده) حكى أحد كبارهم في لحظة صدق نادرة، إذ من المعروف أنهم كتومين جداً ومنطوين على أنفسهم بعكس الحال مع الطلايلة، قائلاً أن العائلة تضم مللاً عديدة... أولاد عبدالقدير نصارى، وأولاد عبدالشفيع يهود، ولما سأله أحد الحضور الظرفاء عن مِلّة فرعهم، قهقه طويلاً وقال: مسلمين طبعاً...

كان الصراع على أشده بين العائلتين الكبيرتين حول العمودية والمشيخة وغيرهما من المناصب الشرفية... صراع من أجل مكاسب ومنافع شخصية بحتة، بمعنى أن أكثر المتحزبين لم يكن لديهم أدنى معرفة ببرنامج أو توجهات حزبهم، ولم يكن لهم دور يذكر إلا أيام الانتخابات... وسط هذه المعمعة استطاع «محمد الصالح» أن يحافظ على احترامه ووضعه بين الجماعتين، فلم يمل أبداً إلى طرف ضد الآخر، وحين تورط شقيقه في قتل أحد رؤوس الطلايلة تمكن بدهاء عجيب أن يتدارك الموقف قبل انفلاته، وقام بتزويج بكره الأزهري الفاشل من ابنة عم القتيل.

سأله العمدة وكان من حزب الأغلبية ـ الوفد ـ:

ـ لماذا لا تنضم إلينا يا شيخ؟؟

* لعن الله الساسة والسياسة بوضعها المخزي.

ـ وهل سينفعك هؤلاء الرعاع الأجلاف؟؟

* هم الأصل رغم أنف غيرهم.

ـ وما موقفك منا بعد مصاهرتك للطلايلة؟ أنت تعرف أنهم موتورون بعد اكتساحنا لهم في الانتخابات الأخيرة وانتزاعنا للعمودية من بين أسنانهم... لماذا لا تحدد موقفك بصراحة... معنا أم معهم؟؟؟

* نحن مع الحق أينما كان وهذا ليس بجديد عليكم، وموقفي منكم هو نفس موقفي منهم عند مصاهرتي لكم من قبل (زوجة محمد الصالح الأولى عمة العمدة وأكثر نسله منها)...

تصبب العرق على وجهه وقال بخجل:

ـ لكنهم قد يغضبون عليك في المديرية... أنت تعرف أن الوزارة في أيدينا الآن، وقد...

قاطعه بحدة:

* المشيخة في نسل محمد الصالح إلى أن نلفظها، ولن يستطيع مخلوق مهما أوتي من القوة أن ينتزعها منهم...

. . . . . .

. . . . . .

كانت الحرب الكونية الكبرى على أشدها، وكان مركز الأعداء الأغراب في هبوط مستمر بعد سقوط عاصمة الأناقة والترف في أيدي جيوش المحور، ورغم تمكنهم من السيطرة على مقدرات الأمور داخل القطر، إلا أن ميل

الأهالي كان واضحاً أنه في صف الأغراب الأصدقاء الذين اجتازوا الحدود الغربية، وباتوا قاب قوسين أو أدنى من عروس ثغور القطر التي استعدت لتسليم مفتاحها لهم بعد وعودهم بالاستقلال فور انتهار الحرب.

وانتشرت أسطورة الفوهرر الصالح الذي أسلم وجهه لله حنيفاً مسلما وحج بيت الله الحرام بعد أن زاره النبي العربي في المنام ووعده بالنصر لتخليص الناس من الشرور والمفاسد التي طَمَت، لدرجة أن بعض المغالين عَدُّوه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأشيع في القرية أن الفوهرر زار قريبه محمد الصالح سراً طلباً للمساعدة والتعضيد أو على الأقل منع الدواب والمؤن عن الأعداء الذين كانوا يجمعونها قسراً من الأهالي، لكنه راوغه وقال قولته المشهورة:

(كلكم بعد الغلبة سواء)

انتهت الحرب بنتيجتها المعروفة بعد استخدام السلاح الجديد الرهيب الحاسم وابتدأ الأغراب الأعداء في تمكين العصابات الدموية من السيطرة على الجناح الشرقي الملاصق للقطر بطرقهم الملتوية تنفيذاً لوعدهم القديم الذي قوبل أيامها بعاصفة هوجاء من المظاهرات والهتافات والقصائد النارية بدون أن تنطلق رصاصة واحدة تذر الرماد في العيون، وهال الواعون من الأقطار المشتركة في هم واحد

مـا يحدث، فـاجتمعوا في جيـوش شبه نـظامية لمحـاربة العصابات الغريبة وطردها (من المفارقات العجيبة أن أحد هذه الجيوش كان على رأسه جنرال من الأغراب الأعداء)، وتكررت القصة القديمة، وإن تغيرت الوجـوه والمسميات الوظيفية والتعبيرات المستخدمة، إذ صدر قـرار من مديـر المـديريـة بتعينه عمـدة لاحتـدام الخـلاف بين العـائلتين الكبيرتين، ولكنه أبى حفاظاً على سنة الراحل، وظل يقوم بالسفارة بينهما حتى هدأت النفوس، وفي الحقيقة (رواية عن ابنه) أنه آثر التخفف من المسئوليـة الرسميـة مفضلاً الجهـاد في الخفاء مـع غيره من الـوطنيين الغيـورين في الواقعة التي اختتمـت فصولها كغيرها من الوقائع السابقـة والـلاحقة بفصـل هـزلي متفق عليـه من أطـراف داخليـة وخارجية وجدت أن من مصلحتها الانتهاء من هذه العملية سريعاً وبأي صورة حتى ولـو كانت مخـزية، وقـد حفلت الكتب والوثائق المؤرخـة لهذه الفتـرة بالبـطولات الفرديـة والجماعية... في «الفالوجا» «والعصلوج» «ودير سنيد»، رغم الخيانات المحبطة والأسلحة الفاسدة التي كانت تنفجر في أيدهم.

وفي الليلة الفاصلة بين مجتمعين وحياتين مختلفتين جد الاختلاف، سكن جسده نهائياً مسلماً روحه لرحلة أخرى طويلة لا تُعرف ماهيتها بعد أن بشَّرته النسوة بقدوم حفيده

«محمد الرابع»، ولم يمهله القدر ساعات قليلة ليسمع البيان الأول للقيادة الشابة الجديدة، كان نهاية لمرحلة كابد طويلاً لكي يسلم من فسادها، وشيعته القرية في جنازة مهيبة لم ير الناس مثلها أبداً...

حكاية منسية:

حكى محمد الثاني عن أبيه أنه نظر قبيل وفاته بقليل إلى السور المتلألىء بأزهار الياسمين وقال:

يأتي يوم تفسد فيه الأحوال وتختلط الأمور ويعلو الأسافل وتتحكم الساقطات في مصائر العباد... سِرُّنا في هذا الياسمين ـ ردَّدها ثلاثاً ـ فعضُّوا عليه بالنواجذ.

وتحققت النبوءة، إذ بعد أعوام قليلة نشف الياسمين وانهدم السور من بعض جوانبه، حتى الصورة التي كانت على واجهة المدخل انمحت، ولم يبق من المكتوب أسفلها سوى كلمة (خيَّال)، ولم تمض سنوات أخرى حتى تهدَّم الجزء الباقي منه، ونُهب السراج التحفة، وانطفأت ألوان الجدران الزبدية، وعشَّش عليها العنكبوت.

obeikandl.com

محمد الثالث

obeikandl.com

obeikandl.com

الوحيد من نسل «محمد الأول» الذي ورث عملقته وصرامته وإن لم يرث تأثيره، ربما لأن دورة الزمن كانت في غير صالحه، إذ انتشر التعليم بين الأسر الفقيرة والمتوسطة ففقدت الأرض عدداً كبيراً من فالحيها، لذا فقد انزوى في بيته زمناً، لكنه اضطر في النهاية لأن يرعى أرضه وزراعته بنفسه بعد أن عزَّت الأيدي المساعدة.

ورث المشيخة عن أبيه لشهور قليلة ثم نأى بنفسه عنها لا لشيء إلا لأنها فقدت بريقها القديم واحترامها بين الأهالي، إذ برزت في تلك الآونة طبقات جديدة تلعن وتحتقر كل ما يمت للماضي بصلة.

كان أبوه قد أرسله للدراسة في الأزهر لتلقي علوم الدين والدنيا من منابعها الأصيلة بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم وأصول القراءة والكتابة في كُتَّاب القرية. وكان الأزهر في ذلك الزمن قبلة العلم ومرسى كل متعطش له من كافة أرجاء الدنيا، وقد دأب رجال البيوتات الكبيرة على

إرسال أبنائهم لتلقي العلم فيه إكمالاً للوجاهة الاجتماعية، وافتخاراً بين الآخرين أنهم من أهل الثقافة والعلم...

لكنه عاد بعد سنوات دون أن يحصل على الشهادة التي أُرسل من أجلها، وكان مدعاة للسخرية والاستهزاء به بين أقرانه الذين أنهوا تعليمهم بنجاح، وانتشرت الشائعات، قالوا إنه شغف حباً ببائعة (البليلة) المقيمة على ناصية حارة قريبة من الجامع الأزهر، وبسببها أدمن شرب المسكرات فطرده الشيوخ من حلقاتهم، لكنه نفى كل ذلك مدَّعياً أنه استدعي من قبل الأهل خوفاً عليه من انتقام عائلة «الطلايلة» بعد أن قتل عمه رأساً من رؤوسهم على مرآى من الناس في السوق، لكن العودة كانت قبل الحادثة بزمن، إذ شُوهد في السوق يومها، وطارده أهل القتيل في الحارات المحيطة ببيوتهم ـ سوق القرية في منطقة سكناهم ـ ولولا سرعة تصرفه للحقوا به وقتلوه، قيل أنهم ساعة مطاردته بعد فرار عمه كانوا يصيحون في القادمين من الجهة المعاكسة:

أمسكوه... أمسكوه...

وكان هو الآخر يجري أمامهم مردداً: أمسكوه... أمسكوه.

فلم يعرف الناس من هو المطلوب إمساكه بالضبط، ونجى، معنى ذلك أنه ترك الأزهر قبل ذلك، ومن المؤكد

أنه لم يستفد كثيراً من السنوات التي قضاها فيه (للأمانة لم يلاحظ على الرجل أدنى إعوجاج في الأيام التي تلت العودة ولم يعرف عنه تعاطيه لأي محرم، وأغلب الظن أن فشله دراسياً يرجع إلى أمور أخرى خلقية كضعف القدرة على الاستيعاب أو التعلم أو ما شابه) سأله سائل: ما هو الماء الطاهر يا شيخ محمد؟

قال: كل الماء طاهر طهور ما عدا البول.

قال الرجل: توضأت من بركة ماء راكد، فهل يصح وضوئي؟؟

قال: على حد علمي وضوؤك صحيح تماماً.

قال الرجل: ولكنك لم تسألني عن سبب ذلك؟

رد الشيخ متعالماً: ما دام الأصل سليماً فلماذا أسألك عن الفروع...

وانصرف الرجل مبتسماً، فقد اكتشف جهل الشيخ.

وذات جمعة غاب أمام المسجد، ولم يجد المصلون غيره ليخلصهم من المأذق صعد هو المنبر والعرق يتفصد من جبهته غزيراً... وقف وسلم ثم جلس ولم يقم ثانية، وكانت مهزلة.

خلع الشيخ العمامة واعتمر الطاقية كعامة الناس فراراً من الصبية الذين كانوا يلاحقون المعممين بالأراجيز الساخرة وبعداً عن التورط في مسائل فقهية محرجة على

شاكلة ما حدث، وانحصرت كل اهتمامته في تسجيل حسابات وأرقام وأسماء في نوتة ما زالت محفوظة في خزانة ملابسه بخط لم تفك طلاسمه حتى تاريخه، وفي لعب (السيجة) قبالة المسجد بعد العصر يومياً وحتى آذان المغرب مع صحاب وقتيين لم ير معهم في غير هذا المكان... (السيجة: لعبة شعبية كانت منتشرة في الريف المصري إلى عهد قريب، تشبه إلى حد كبير لعبة الشطرنج، وقد فتر الاهتمام بها إلا على نطاق ضيق لانشغال القرويين المضني بلقمة العيش).

البداية:

«الراعي بن سومه» انفصل عن ربيبه «محمد الصالح» واحترف السطور متخصصاً في النحاس بعد خدمة استمرت أكثر من عشرين سنة نظير الأكل والكسوة ومقدار متفق عليه من غلة الأرض، ولهذه حكاية تكمن في نقطة ما قبل الانحراف...

قيل له: لم تعد تهتم بالمواشي.

قال: وماذا أخذنا منها غير القرف ووقف الحال.

ـ والأرض؟

ـ ملعونة هي الأرض وأصحابها... أورثتنا الفقر والمرض.

ـ لا يصح أن تتطاول على الذين ربُّوك وجعلوا منك رجلاً.

ـ ربَّاني ذراعي يا شيخ (كان قبل ذلك ينطقها مسبوقة بأبي).

ـ يا شيخ!!!

ـ أي نعم، وإن لم يعجبكم الحال سأترك لكم الجمل بما حمل.

. . . . . .

. . . . . .

«يوسف التابعي» كان أقل حدَّة، جاءه بعد صلاة العشاء، قَبَّلَ يده وجلس (لم يكن يجلس في حضرته مطلقاً).

ـ ماذا وراءك يا يوسف؟

ـ خير يا أبي الشيخ.

ـ هل علمت بما فعله الراعي؟؟

ـ مخطىء في تطاوله ولكنه معذور في طلبه، من حقه أن يعيش كما يحب.

ـ هيه... وماذا بعد؟؟

ـ تعرف أن وابور الطوب يعطي جنيهين في نصف النهار.

ـ والأرض؟؟!

ـ البركة في محمد والبنات

. . . . . .

. . . . . .

أما «عبدالستار الفار» فقد أخذ أجره عن سنة مقدماً ـ أردبا من القمح ومثله من الذرة ـ بحجة تجهيز ابنته. . . باعهما واستأجر فداناً من أراضي وقف «أولاد جنيد» الأتراك الأصل، استولى عليه فيما بعد بوضع اليد ولم يدخل البيت مرة أخرى، لكنه ظهر بعد سنوات ماراً من أمامه وبيده راديو كبير قيل أنه اشتراه من مصاب عائد من حرب الأشقاء الدائرة في جنوب الخلاء القريب، بين جماعة الإمام، والثوريين المدعومين من القطر، يجلجل بأحدث مواويل المطرب الشعبي «محمد طه»، وعند محازاته للبوابة الكبيرة أخرج لسانه وقال: دستوركم يا آل البيت. . . نظره. . .

. . . . . .

. . . . . .

ظلت حياته تدور حول أربعة محاور رئيسية. . . البيت الحقل ـ المسجد السيجة.

لم تشذ إلا قليلاً، فقد كان يشارك في جنازات الأعيان بصفته شبه الرسمية متشبهاً بأبيه وجدِّه في الملبس الفخم والعمامة الأنيقة.

عاصر الحروب الأربعة الكبيرة التي أربكت اقتصاد القطر، ولكنه لم يكن يهتم بها مُدَّعياً أنها ورطة لا ناقة لنا

فيها ولا جمل، حتى الحرب الأخيرة شكَّك في نتائجها مُتَّفقاً في ذلك مع الصحافي الذكي اللامع بصراحته الأسبوعية التي كان معجباً بها أيَّما إعجاب ـ مردُّ ذلك من وجهة النظر الشخصية إلى أنه فَقَدَ ابنه الوحيد الذي تطوَّع في صفوف المقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثي، ومن يومها كره الحروب كما حدَّثْتُ، ورغم أنه رُزق بولد آخر إلا أن موقفه ظل ثابتاً لا يتغير إلى أن رحل فجأة قبل أيام من الزيارة المشؤومة التي أسلمت عنق القطر للعصابات المقعية بعنجهية في الجناح الشرقي دون أن يُعرف مرضه، وعند جرد خزانته الخاصة وُجد عدد كبير من العصي الأبنوس والزان ذات مقابض فضيَّة مُحلاَّة بنقوش وكتابات غريبة، وساعة ذهبية بديعة الشكل قيل أنها هدية من ضيف هندي حلَّ على أبيه أثناء الحرب الثانية الكبرى، وكذلك أنواع مختلفة من الجلابيب والعمامات والعباءات الصوفية والحريرية، كما عُثر على سراج أثري بيع أيام القحط بقروش قليلة، وورقة صفراء مطوية بعناية قالت زوجته أنها شجرة العائلة، وعند فردها تبيَّن أن خطوطها قد امَّحت، أما الجنيهات الذهبية التي قيل أنه ورثها عن أبيه ـ بوصفه بِكْرِيُّه حامل لواء العائلة من بعده ـ فلم يُعثر لها على أثر ـ قيل أيامها أنها تربو على الألفين (ثلث «أرنب» بحساب هذه الأيام).

(الأرنب: مليون جنيه بلغة المتخمين الجدد، دخل قاموس التعامل اليومي في العشر سنوات الأخيرة...).

وهناك نظريتان شعبيتان تفسران كيفية اختفاء الجنيهات من الخزانة التي لم يلمس مفتاحها حي غيره، الأولى تلمز من طرف خفي دون اتهام صريح أن زوجته الطيبة جداً سربتها إلى أخ لها كأمانة، ولما كان لهذا الأخ طموحات استثمارية لا تغطيها إمكاناته المتواضعة، فقد أقنعها بضرورة بيعها ومشاركته في مشروع البطاطس النُمْرُسِي المضمونة الإنتاج والمكسب، وقد اتَّكأ أصحاب هذه النظرية على المشاهدة للتدليل على صدقها، إذ بعد شهور قليلة شوهد الأخ يدخل بيتها حاملاً جوالاً من البطاطس قال أنه من القطفة الأولى، وفي الأسبوع التالي دخل بآخر من القطفة الثانية، ثم انقطع بعد ذلك، وبالبحث والتحري تبيَّن أنه يُعالج في عيادة نفسية من جرَّاء صدمة عنيفة زلزلته، وبالسؤال عن سببها قيل: مسكين، فسدت زرعة البطاطس كلها أثناء التخزين بعد أن صرف دم قلب أولاد أخته اليتامى عليها ـ...

أما مكان المخزن أو المزرعة، فلم يستطع أصحاب النظرية التوصُّل إليهما، وبقي المكان يمثل حلقة مفقودة تقلِّل من قيمتها.

النظرية الثانية تعتمد اعتماداً كلياً على الوقائع المادية، فقد لاحظ أصحابها أن زوج ابنته الكبرى باع نصيبه في بيت عائلته الطيني لإخوته الأربعة فجأة، ثم اشترى طوباً أحمر وشيرع في بناء بيت جديد، وتلى البناء شراء ماكينة المياه، ودرَّاسة القمح والراديو والمسدس، وتغير تبعاً لتغير الحال ملبسه ومشيته وطريقة كلامه.

أما الزوجة فقد شوهدت تخرج من محل صائغ مغمور وفي صدرها عقد ذهبي أخفته تحت ملابسها بالإضافة إلى ستة أساور وقرط مكوَّن من عدَّة دوائر متماسة تنتهي قرب الكتف بحبة ذات إشعاعات غريبة، وقد تبيَّن فيما بعد أن طرف العقد المخفي يتدلى منه جنيه ذهبي منطفىء اللون...

* * *

obeikandl.com

محمد الرابع

obeikandl.com

obeikandl.com

أنا «محمد الرابع» سليل الصوالحة الأماجد/ يقول: «أميديه جوبير» من علماء الحملة الفرنسية في دراسته (حصر للقبائل العربية التي تقطن بين مصر وفلسطين) ترجمها المرحوم «زهير الشايب» في الجزء الثاني من كتاب «وصف مصر» أن الصوالحة قبيلة عربية كانت تقيم في ضواحي العريش وإلى الشمال منها وهم عبارة عن أربعمائة فارس، وشيخها الذي تعرَّف به مؤلف الدراسة هو الشيخ «محمد بن صالح»، وكانوا متحالفين مع قبيلة الحويطات التي تقيم على بُعْدِ ثلاثة فراسخ من القاهرة ـ انتهى كلام الباحث عام ١٧٩٩ م...، ولسبب لا نعرفه انتقلت هذه القبيلة إلى الصحراء الواقعة شرق القاهرة كلها أو بعضها، وسكنت المنطقة المسماة إلى يومنا هذا بمنطقة عرب الصوالحة، أما أسباب انتقال «محمد الصالح» إلى قرية «شرشابة» بوسط الدلتا فغير معروفة (هناك روايات غامضة ذكرنا إحداها في الجزء الأول من الرواية إلا أن فروضها واستناداتها ضعيفة، وقد نستطيع فيما بعد أن نفرد لها جزءاً

خاصاً، لكننا لم نتوصل حتى هذه اللحظة إلى اكتشافات ذات قيمة). . . لم أرث المشيخة عن أبي لأنها أُهْمِلَتْ في القوانين التنظيمية الجديدة، وأُنشئت نقطة بوليس على رأسها (صُول) ضخم الجثة أجهم الخلقة غضبوا عليه في المديرية فرموه في قريتنا، شرس الخلق ولا يراعي في تعامله أدنى اعتبار لما كان. . .

صفعني مرة أمام الخفراء الذين كانوا يطأطئون رؤوسهم رهبة واحتراماً إذا ما مروا بدوَّارنا لأنني تجرأت وقلت له يا وجه الحدأة، في المحضر الرسمي لم يذكروا حادثة الخوص، كل ما كتبوه أنني تعدَّيت على موظف «ميري»[1] بألفاظ نابية أثناء تأديته لعمله الرسمي. . . وجهه بالفعل مثل وجه الحدأة فلماذا كل هذه الزوبعة؟؟!!

قلت لنفسي: صفعة وغرامة أهون من الفضيحة خصوصاً وأن تاريخ العائلة لا تلوثه نكتة سوداء مثل هذه.

لكن حضرته لم يكتف بذلك، وحبسني أسبوعاً كاملاً وسط الجرزان والبق حبساً انفرادياً إمعاناً في إهانتي وإذلالي، مسحت خلاله كل طرقات وحجرات ودورات مياه النقطة، ورششت الماء بالجردل أمامها إحدى وعشرين مرة مثل سنوات عمري تماماً وحتى لا يغضب الشيخ أبو غزالة سأغير التعبير إلى «مثل عدد السنين التي مضت من عمري تماماً»، وكأنها مقصودة، وكان وجه الحدأة وأنا مصمم

ومقتنع دون أدنى حرج بهذا الوصف، كلما رآني ركلني بحذائه الثقيل قائلاً: اشتغل يا ابن الـ...

أي وشرف أبي... يا ابن الـ...!!

قلت له كما قال أبو العلاء المعري: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً. ولكنه لم يفهم، عقله في جلدة نعله.... وظيفته الأساسية حفظ الأمن، فما دخله بخصوصيات الناس؟؟

قال: يتيمة ومسكينة استر عليها وإياك أن تفتح فمك بكلمة في حقها، أنفيك من على وجه الدنيا...

احلوَّت في عيني وجه الحدأة... همس النطع في أذنها فقهقهت... بصَّت ناحيتي وقالت: مع السلامة يا عيني...

* * *

عندما أنشبت النار مخالبها في جسد القرية (حريق «شرشابة» الشهير الذي نشب في أوائل الستينات من هذا القرن تحديداً حتى لا يختلط الأمر بحريق الستينات من القرن الماضي، يُقال أن القرية مبتلاة بهذا الحدث المروِّع في نفس الميقات من كل قرن، أما الأخير فقد أثَّرت خسائره الهائلة على الحالة المعيشية للأهالي الذين طالهم لسنوات طويلة، وهلكت بسببه ثلاثة أنفس ـ اثنان منهم من الصوالحة ـ بالإضافة إلى أكثر من مائة وخمسين شخصاً أصيبوا بدرجات مختلفة من الحروق) كان ذلك أثناء خطبة

الجمعة ذات نهار قائظ بحثوا عن مسئول الأمن ليرسل بلاغاً للمركز ـ تليفون القرية (الميري) [1] نُقل إلى مكتب سيادته بعد إلغاء العمودية. . . ـ همس المسئول الثاني في أذن أحد الأهالي قائلاً: البك في مقر النقطة الصيفي.

كتب البلاغ وأوصى بضرورة إمضائه منه شخصياً واحضار مفتاح المكتب، ذهب وفد منتقى إلى حيث أشار، طرقوا الباب بلطف حتى لا يزعجوا سيادته، خرجت عليهم

---

(١) الميري: مُحرَّفة عن الأميري وتعني العمل في الحكومة، وقد كانت مشاعة في سنوات ما قبل الثورة وما بعدها بقليل، وألغيت رسمياً مع باقي الألقاب والمظاهر التي كانت سائدة، ومنها جاء المثل الشعبي الشهير:
«إن فاتك الميري أتمرَّغ في ترابه» إشارة إلى أهمية وعز موظف الحكومة في تلك الآونة، وقد بطل التعامل باللفظة إلا من قبيل التندر والاستخفاف بعد انصراف أصحاب الطموح إلى العمل الحر، وقد ظهرت في الآونة الأخيرة نقائض للمثل في ظل منطق (السوبر ماركات) والاستيرادات ـ المشروعة وغير المشروعة ـ وجمعيَّات النفع الخاص، والمثل الجديد على عدَّة مستويات تحتمل الزيادة:

* إن فاتك الميري بُوسْ إيدك وش وظهر.
* إن فاتك الميري إعمل ليله للحسين.
* اهربْ من سيف الميري تِسْلَمْ.
* لو كان الميري رجلاً لقتلته.
* إن فُتّ الميري إرقصْ ديسكو وحَلِّي باليه.

«عطيات» في قميص نوم مقتصد ذي لـون وردي، هبت فيهم:

ــ البك نائم ألا تستحون؟؟

ــ القرية تحترق... مجرد بلاغ...

ــ كل يوم حرائق، هل ستخرب الدنيـا... الصباح رباح...

بعد الحاح خطفت الورقة وهبدت الباب في وجوههم، وبعد دقائق قذفتها مكورة من الشباك وبداخلها المفتاح.

. . . . . .

. . . . . .

* * *

أصل الحكاية:

«عطيَّات ابنة غالب المسكين» هبطت علينا ليلاً على غير العادة، قبَّلت يد أمي رِغم أنها من الجيل التالي لها مباشرة وجلست مهمومة.

سألتها أمي عن سبب همِّها فقالت:

ــ مشوار طويل يا خالة والدنيا عتمة... أولاد الحرام لا يدعون أولاد الحلال في حالهم.

ربتت الطيبة أمي على كتفها وقالت بتأثر شديد:

ــ لا تشغلي بـالك يـا ابنتي... فكَّ الله حبس والـديك.

أشارت إليَّ وقالت:

ــ اذهب يا ولد مع أختك ولا تفارقها لحظة.

أخذتني عطيات من يدي، نبذت طريق الناس وسلكت مسرباً وسط الغاب والخوص يشيِّب شعر الرأس ويجعله يطقطق في عزِّ الظهر... اقتربت مني، ثم انخرطت في البكاء!! تسمَّرْتُ في مكاني، ماذا حدث؟؟؟

قالت بغيظ:

ـ غبي... ألا تعرف؟؟!.

بلعت الإهانة وقلت بدهشة وقلق:

ـ وشرف أمي لا أعرف أي شيء...

ازدادت حدَّة بكائها وتمتمت:

ـ يقولون إنكم من جنس الجن... لكن يبدو أنكم لا جن ولا يحزنون...

.....

.....

عاودت عطيَّات الكَرَّةَ، جاءت تحمل كيساً من الفاكهة وصندوقاً من الحلوى وبعض المناديل الملوَّنة ومرآة، فردتهم أمام أعيننا وجلست صامتة، غمزت لي بعينيها وخرجت، كان بعض ذوي الخبرة قد أفهموني القصد من مناورات قطعة الملبن، انطلقت خلفها دون تردد، كانت قد سبقتني إلى المسرب إيَّاه... ألقمتني بيدها المرمرية قطعة من الحلوى وجلست متحفِّزة، تبخَّر الخوف منِّي وقلت: أهلاً...

مصمصت شفتيها بصوت مسموع وقالت: أهلاً حاف!! أين تُصرف يا عيني؟؟ هيه... أرسل ابن الدرويش عشرات المراسيل طمعاً في فرصة كهذه ولكنني أَبَيْتُ من أجل عينيك...

مالت عليَّ بدلال جريء وهمست: تأخَّرْنَا...

تأخرنا!! اصطكَّت مفاصلي ونشف ريقي وأخرجت مسامي كل مخزونها من العرق دفعة واحدة، وضعت طرف ثوبي بين أسناني وركضت محموماً، وكان وجه الحدأة لي بالمرصاد وحدث ما حدث...

ذوو الخبرة عنَّفُوني على فعلتي الغبية ومسلكي الشائن، وأصرُّوا على أن تكون المبادرة القادمة منِّي بعد أن يهدأ الجو، وأوصوني بالحكمة عند المعالجة.

انتظرت شهوراً، كان وجه الحدأة قد انتقل إلى مكان آخر لتورُّطه في فضيحة أخلاقية لا مجال لسردها هنا، ولما طال انتظاري تجرَّأت وطرقت بابها المغلق على غير العادة، قرصني جار مشاغب من أذني وهمس:

ـ يقولون أنها لافت على أحد السائقين الرامحين على الخط بكثرة في هذه الأيام ورحلت معه إلى منطقة بعيدة عن العمار مقابل سجن للنساء في انتظار أمر الإفراج...

قلت منزعجاً:

ـ أمر الإفراج عن من؟؟؟

ابتسم بخبث وقال:

ـ حتى أنت يا جن!!

* * *

عاد غالب المسكين بعد غيبة امتدت لسنوات طويلة وقد استحالت بشرته إلى لون البن المحروق.

استقبله أكابر البلدة بحفاوة شديدة رغم ضعة الأصل وفساد السلوك... قَبَل دعوة العمدة بعد طول تمنُّع للغذاء معه في بيته ودعى معه وجهاء الناحية ومأمور المركز، وقد فسَّر أحد العارفين الدعوة بأنها ليست من أجل عيون غالب على أساس أن كل ولائم العمدة تُقام في الدوَّار، وإنما لوصل الود المقطوع بينه وبين ابنة هنومة من سالم بن حليس المنتظرة أمر الإفراج بعد انقضاء نصف مدة الحبس حسنة السير والسلوك.

كان قد أشيع بأن للعمدة يدا فيما حدث لغالب وزوجته، ومما أكَّد ذلك تواجده معهما ساعة ضبطهما متلبسين بحيازة عدَّة لفافات من الأفيون الخام وربع طُرْبة من الحشيش، ورغم ذلك لم يحاسب كمتستر، ولم يُستدعَ حتى للشهادة، ومحاولة منه لرأب الصدع وقطع الألسنة، دفع من جيبه أجر شهود النفي والمحامي... (ظل اللقب متداولاً على ألسنة الناس رغم الغائه رسمياً، وكان العمدة

السابق يُكلّف من قبل الحكومة بالتدخل لفض الخلافات التي تحدث بين العائلات ودِّياً، وقد نظم مشيخة بديلة لمساعدة الشرطة في بعض المسائل المتعلقة بالتجنيد وغيره تشبه إلى حد كبير نظم مشيخة الحارة في مدن...)

مصمصت إحدى العجائز شفتيها وقالت:

ـ حسرة قلبي عليه... كان وجهه مثل الحليب... لعنة الله على المخدرات، هدَّته وسخطت خلقته وأضاعت شبابه بين جدران أربعة.

اشترى غالب حماراً وبضع لفافات من التوابل (المحوَّجة) حملها وانطلق إلى أسواق القرى المجاورة، بعد شهور قليلة ثقلت الحمولة وجرى القرش فكلَّف أحد النجارين من أصحاب المزاج بصنع عربة (كارو) ذات أدراج لحماية جوزة الطيبة وفطر خلاصة تجديد الهمة من الشمس والمطر، ولم ينس نفسه فأمر بإضافة مظلة كبيرة تعرِّش العربة.

زاره عصر أحد الأيام غريب يرتدي حُلّة إفرنجية منشَّاة، ركن عربته الفارهة التي جمَّعت حولها معظم أطفال القرية والقرى المجاورة وبعضاً من رجالها أمام مدخل المسجد الكبير، احتضنه غالب وقبَّله بحرارة وشوق، فرد فرشة السوق مقابل دكانه العامر وجلس مع ضيفه، صفَّق بيديه وصاح بأعلى صوته:

ـ الشاي يا عطيات.

عطيات!!!

رفرف قلبي بعنف، واستدعت حواسي على الفور حكايتها المنسية...

. . . . . .

. . . . . .

لم يمهل القدر غالباً لينفذ الاتفاق الذي قيل أنه أبرمه مع الغريب ذي الحُلَّة المنشَّاة والعربة الفارهة فمات بعد أيام قليلة وتوارى معه سر الاتفاق، أما زوجته فلم يُعرف مصيرها بالضبط، لكن هناك إشاعة قوية تقول أنها ماتت في السجن بطريقة غامضة بعد أن زارها غريب ذو...، وقيل أنها دُفنت إلى جوار[1] زوجها ذات ليلة شتوية عاصفة دون أن يحس بذلك مخلوق.

* * *

(١) رغم أن النسوة إذا متْنَ في قريتنا لا يُدْفَنَّ في مقابر الرجال، إلَّا أن هذه الرواية قد تكون صادقة لأمرين:

* أن سعر ذراع الأرض في منطقة المدافن أصبح خياليًّا وأصبح التفكير في هذه المشكلة من الأمور الحياتية الهامة للغاية، أضف إلى ذلك أن كل ما اكتنزه غالبٌ من مالٍ التهمه المحامون في قضاياه العديدة والباقي صادرته الحكومة.

* أن عمليَّة الدفن تَمَّت كما قيل بطريقة سرِّية وعلى عجل ولم تكن هناك فسحة من الوقت للتفكير في مثل هذه المسائل أو التحرِّي عن مشروعيتها من عدمه.

انقطعت صلتي بالقرية لفترة طويلة تفرغت فيها لدراستي وبالطبع كانت هناك علاقات جديدة بالمدينة شغلتني لبعض الوقت عن عطيات، ولكنني كنت أتسقَّط أخبارها عن طريق الأصدقاء المقيمين في القرية، وقد علمت فيما بعد أنها تزوجت من زبون أبيها الأثير.

كانت كل اهتماماتي منصبة بصفة أساسية على السياسة متابعاً للتجاوزات المخزية التي تحدث داخل القطر واضعاً نصب عيني صورة الأب الروحي - قبل اكتمال الوعي - شامخة ودودة حانية قادرة على فتح الأبواب المغلقة مهما ادلهمت الحياة وتعقدت الأمور، ورغم المحاولات الدائبة من النفعيين والوصوليين المندسين كالبؤر السرطانية وسط التنظيمات الطلابية لإفساد صورته، إلا أننا كنا نزداد تشبثاً بخطه الذي لم يمهله القدر للوصول به للنهاية...

منقسماً كنت بين شقين.

شق ينظر للماضي بعين الإكبار والإعجاب.

وشق ينظر للحاضر والمستقبل على أنهما الأولى بالاهتمام والتفكير...

وبين هذين الشقين كانت هناك مساحة شاسعة غرائزية التوجه تسيطر على سلوكي مزينة لي عالماً مغايراً لا يحتوي قاموسه على هذا أو ذاك... عالماً ذاتياً محضاً، وهذا

التناقض الظاهر على ما يبدو دون أن أدري جعل بعض الزملاء يقولون لي:

ـ أنت شاعر مذبذب الفكر لا موقف لك، ولا يمكننا أن نثق في انتمائك...

كانت الأحداث تتوالى سريعة دون ضابط، وصور الخديوي المتفرنج تتصدر صفحات الجرائد والمجلات بابتسامته الحلزونية اللزجة، وغليونه الممتد من زاوية فمه بعنجهية وصلف متحدياً الجموع المناهضة لسياسته وسلوكه، أحد الزملاء قال:

ـ ماالعمل؟؟ الأحوال تزداد سوءاً والحاكم بأمره يتنقَّل بين قصوره واستراحاته الفخمة كملوك ألف ليلة وليلة متجاهلاً مشكلات البلد، وكأن الأمر لا يعنيه... وبنقاء ثوري ساذج قلت:

ـ نرسل له منشوراً شديد اللهجة نطالبه فيه بالاستقالة...

في اليوم التالي مُنعت من دخول الجامعة بحجَّة أنني انتهيت من الدراسة. سافرت إلى القرية مصمماً على العمل وحدي لأثبت لزملائي أن لي موقف وأنني قادر على التغيير والفعل الجاد.

من السهل جداً أن توجِّه البسطاء إلى الوجهة التي تريدها.

أما الملتاثون الذين سملت المدينة نقاءهم وعفويتهم فمن الصعب جداً أن توجِّههم بإمكانياتك المحدودة...

لأنهم مع الموجة القوية أينما ذهبت يذهبون...

وهالني ما وجدت...

أحد مسئولي القرية همس في أذني ناصحاً:

ـ وصلنا كل شيء عنك، ولولا شفاعتنا لكنت الآن وراء الشمس، النظام مستتب والرئيس مشغول بالمشكلات الخارجية العويصة، دعك من أفكارك الساذجة، مستقبلك في ظل النظام الحالي، فلا تقامر به في سبيل أوهام بطولة زائفة...

في تلك اللحظة تبيَّنت أن البؤر السرطانية قد سبقتني إلى القرية...

* * *

قطاع حركي تصاعدي بعد نهاية الخط:

لما انفتحت الأبواب على مصراعيها أمام الأسافل، وابتدأ الهبش المقنن إيذاناً بالدخول في عصر الرخاء المزعوم عملاً بالحكمة القائلة:

(من لم يغتن في عصرنا لن يغتني أبداً)[1].

---

(١) قالها بالفعل سيادته في جلسة مذاعة على الهواء بلهجته الشعبية المعروفة أثناء دفاعه عن قانون الانفتاح، ويُذكر ـ في نفس الآونة ـ أن مذيعة التلفزيون الأمريكية الشهيرة سألته بصداميتها =

هجَّت أعداد كبيرة من أصحاب الحرف إلى الخلاء القريب من القطر طمعاً في تغيير الحال.

قال نبيه أبو شهاب البنَّاء لنفسه:

ـ لا ارث يربطني بالمكان والحال لا يسر، فلم التسليم للفقر ما دامت أرض الله واسعة والهجرة متاحة؟؟ انتظار الفرج الموعود الذي قد يجيء وقد لا يجيء لن يطعم العيال ولن يكسيهم...

انتزع الحلق اليتيم من أذن زوجته، حمل المحارة والمسطرة والميزان وتوجَّه إلى السوق، باعهم ودفع مكوس

= المعهودة في برنامجها الذي يسمعه ـ كما يقولون ـ أكثر من عشرين مليوناً في أمريكا وغيرها:

* سيادة الـ.... رأينا مزرعتكم الضخمة في ..... ما الهدف منها؟؟

ـ أزرعها قمحاً لأبنائي هناك.

قالت بخبث: ولماذا لا تزرعه هناك ـ بمعنى آخر ـ لماذا في أمريكا بالذات؟؟؟

تأتأ ثم استدرك وقال متفلسفاً:

ـ لأنها هنا في أمريكا أولاً، ولأننا نحب القمح الأمريكي ثانياً (تهدج صوته وكَسَت سحنته طبقةٌ من حزن مصنوع) وأردف: أريد أن ينعم أبنائي بالرخاء في أيامي التي لن يروا مثلها أبداً بعد أن أنهكتهم الحروب والمصائب على امتداد ثلاثين سنة متواصلة صبروا فيها صبر أيوب!! أليس من حقهم عليَّ ذلك؟؟؟

المكتب وسافر على أقرب طائرة، قدم يجر قدماً حتى خلت الناحية تقريباً من الرجال (ليس هذا من قبيل التهويل، إذ أن قرى بأكملها خلت بالفعل من الرجال، حتى أصحاب العاهات ناداهم الرزق فهجُّوا مع الآخرين، ولم يبق إلا النساء والأطفال والموغلون في العمر، فبارت مساحات واسعة من الأراضي الزراعية، ولم يعد الجزء الصغير الباقي من المساحة يعطي إلا القليل...) بعد شهور ازدحم مكتب البريد بالنسوة والأطفال ذوي الثياب الفاقعة الألوان، وارتفع الحد الأدنى لتسعيرة تسليم الخطاب من قرش إلى جنيه، تلى ذلك ارتفاع أسعار اللحم والبيض، وشحَّ الأرز والدقيق من السوق، وأضيف الكستور والدمُّور وقماش التنجيد إلى بطاقة التموين، وقفزت تذكرة الأتوبيس بين القرية وعاصمة الإقليم من ستَّة قروش إلى خمسة وعشرين قرشاً، وندر وقوع العين على الدجاج البلدي ذي الألوان الزاهية، وظهر الدجاج الأبيض المغذى بالهرمونات والعلف الصناعي المستورد الذي قيل أنه يضعف هرمونات الذكورة عند الرجل، وطغت ظاهرة عنتر الجزَّار وعدوية وعثمان وعبدالحي وعصمت، وفي المقابل انسحب صيت الشيخ رفعت وعبدالباسط وطلعت حرب والسنهوري، وزحف الصبية إلى المقاهي والغرز لملء الفراغ الذي أحدثه الغائبون، وسط هذه الظروف المكهربة طلب سعد

الحانوتي يد ابنة الشيخ الشّوان شقيق العمدة السابق خرِّيجة التجارة العليا لابنه السبَّاك الصاعد بقاهرة المعز، وباع الهرَّاس الغزوني السبعة قراريط التي ورثها عن أبيه بعد دخولها (كردون) المباني بأربعين ألف جنيهاً، اشترى بثلثي المبلغ خمسة فدادين زراعية، ووضع الباقي في مصرف استثماري يعطي فائدة سنوية صافية لا تخضع للضرائب تصل إلى عشرين في المائة، وبذلك دخل طبقة الأعيان الذين يحق لهم قانوناً الترشيح للمشيخة (دخل المشيخة في ظل نظمها الجديدة التي أشرنا إليها سابقاً أناس من هذه النوعية... سمسار بهائم، وعلَّاف، وختَّان أطفال...)، ورشَّح جسَّاس البهائم نفسه لعضوية المجلس القروي، وحلف زوج محروسة البلَّانة بالطلاق لتجار المواشي أنه لن يبيع الجاموسة بأقل من مائة جنيه ـ كان التجار قد عرضوا عليه أربعمائة وقبلها بسنة كانت معروضة بثمانين، وهجم أولاد شهاب الفار العشرة على الصولى فتوة الناحية بلا منازع طوال ثلاثين سنة وانتزعوا من يده مسدسه فمات في لحظتها، بعض العارفين قالوا أن وضعه قد اهتز بعد أن تدروش ابنه المرشح لخلافته ملكاً للفتونة وأصبح يغشى حلقات الذكر ويقبِّل يد الشيوخ...

* * *

تنويه: لا توجد علاقة بين عاشور الناجي ونسله أبطال رواية الحرافيش للأستاذ نجيب محفوظ، وبين الصولى فتوة ناحيتنا...

* * *

ودار هذا الحوار بين امرأتين في الطريق العام:

ـ بكم تشترون الدولار اليوم يا أم شهاب؟

همست وهي تتلفت مذعورة:

ـ اخفضي صوتك يا امرأة الحيطان لها آذان... كم معك؟

ـ عشر ورقات، وبعد أيام ستصل مثلها.

ـ فقط! عيني عليكم، لو سلك المحروس زوجك في أي مهنة لأكلتم الشهد... الورقة يا عيني بورقة ونصف.

ـ ورقة ونصف!! البندر أغلى...

مدَّت أم شهاب خطواتها للأمام مجتازة الأخرى ويدها على (سيَّالة) جلبابها المطرَّز بالترتر والخرز الملوَّن قائلة:

ـ كما تحبين يا عيني... اسألي في البندر وسنشتري بملمين زيادة...

.....

.....

* * *

(رسالة من غير بسملة على ورقة حمراء وُجدت بين سيقان وأحشاء وريش دجاج مُلْقَى على ناصية حارة بوسط البلد):

الغالية أم شهاب

أما بعد، ، ،

اعتدل الحال بعد طول معافرة وكثر الورق الملوَّن فاضطررت لفتح حساب في مصرف قريب. . . أسكن الآن في بناية نقوم بتشطيبها لحساب مقاول من الباطن وطبعاً أنت لا تعرفين الباطن من الظاهر، قدر ومكتوب، لا يهم، الحجرة مجهزة بالتكييف والثلاجة والبوتاجاز والتلفزيون الملون والتسجيل، أما الفيديو فلم أحضره بعد. . . كل شيء تمام. . . بخصوص قطعة الأرض التي حدثتك عنها في الخطاب السابق، استقر رأيي أخيراً على شراء دوَّار الصوالحة، سمعت من أبي شرخ الشدَّاد أنهم ينوون بيعه، فاتحيهم في الموضوع وأنا على أتم استعداد لدفع أي مبلغ يطلبونه ولو كان بالعملة الصعبة. . . واسع وقريب من البيت القديم. . . الأهم من ذلك أننا يمكن الاستفادة من طوبه وخشبه وأنقاضه في بناء زريبة مواشي مكان البيت القديم.

جاري تخليص إجراءات شحن السيارة (البك أب) وعليها كل الطلبات المتفق عليها.

سلامي للعيال ولكل من يسأل عنا، وأرجو عدم التصرف في المبلغ إلا بعد ارتفاع السعر في السوق. . . . .

ودمت لزوجك المخلص

(. . . . . .)

* * *

اجتمع الرجال لمناقشة العرض المغري، قال أحدهم:

ـ رغم إغراء المبلغ الضخم إلا أنني غير موافق بالمرَّة، ماذا يقول الناس عنا؟؟ على آخر الزمن يأتي أبو شهاب ليشتري أملاك الصوالحة!! تاريخ العائلة المجيد وشرفها يا إخوان يحتِّمان علينا ألا نفرِّط في شبر واحد منها حتى ولو متنا جوعاً. . . هذه جرأة منه ووقاحة يجب أن نحاسبه عليها ماذا حدث في الدنيا؟؟

قاطعه أحد المستفيدين قائلاً:

ـ وماذا أخذنا من الشرف والمجد القديم يا كبير المقام؟؟ الأرض؟ بارت ولم تعد تغطي مصاريفها. . . الدوَّار؟ مهجور كالطلل البالي. . . دعونا من المظاهر الكاذبة التي لا تطعم كسرة خبز، الزمن تغيَّر يا إخوان، لو كان أبونا أو جدنا على قيد الحياة لما ترددا لحظة في الموافقة. مبلغ ضخم مثل هذا يمكِّننا من إحياء ما اندثر، لا يهم المشتري من يكون، المهم كم يدفع.

ردَّ الأول محتدّاً:

ـ على جثتي لن أبيع، سآخذ نصيبي ولو كان قالباً واحداً من الطوب وتصرَّفوا أنتم في نصيبكم كما تحبون.

احتدمت المناقشة،

وتشابكت الأيدي،

وارتفعت الفؤوس،

لكن العقلاء تداركوا الأمر قبل أن يسقط ضحايا.

أما أنا، فلم أعر الموضوع أدنى اهتمام، يُباع الدوَّار أو يبقى، ما دخلي أنا في هذه الأمور التي تحرق كرات الدم الحمراء والبيضاء، يأخذه أبو شهاب أو غيره كله لا يهم، ألف داهية تأخذه بمن فيه... تكفينا الهموم والمصائب التي حملناها على رؤوسنا، ماذا يريد منا هؤلاء المتعفنون بعد أن أفسدوا الحياة بتصلُّبهم وعنادهم الأعمى؟؟ هل يريدون إحباطنا مزاجياً أيضاً؟ إذن اللعنة على الجميع... أخرج كل يوم صباحاً إلى عملي وأعود ظهراً مهدود البدن والروح من كثرة التدخين وشرب الشاي والفراغ المؤذي، ولا ينتشلني من هذا الهم المركَّب إلا الليل بسحره وسكونه (يا ليل طوِّل... طوِّل يا ليل)، بالمناسبة... أنا حاصل على ليسانس في الفلسفة وعلم النفس وأعمل مراجع حسابات في الجمعية الزراعية... ماذا أفعل؟؟ القرية في الحقيقة أهدأ من المدينة وأنقى، إذ أين أسكن

هناك؟؟ البيت هنا واسع وإن كان سكانه جهلة وأنكاد، كل ليلة يعطونني محاضرة أخلاقية من نوعية «التدخين ضار بالصحة، والرفيق قبل الطريق»!!! مررت اليوم صدفة وبدون أي قصد ببيت غالب المسكين ملك المزاج في زمانه، فوجدت عطيَّات تطل كالقمر من فرجة الباب، ازدادت الملعونة بهاءً بعد الزواج نكَّست رأس، والتفت للناحية الأخرى متجاهلاً، حدَّثني الجانب الخيِّر فيَّ قائلاً:

ـ المرأة متزوجة وعندها أولاد، فلا يصح أن تشغل رأسك بها خصوصاً وأن زوجها تربطك به علاقة مزاج مشترك...

نادت عليَّ عطيَّات قاطعة حواري الداخلي:

ـ سلامات... لم نعد نراك... ماذا حدث؟؟ هل نسيتنا؟؟؟

غلت رأس ولكنني تماسكت، تذكَّرت موقفها مني يوم حادثة الخوص أمام وجه الحدأة، فثارت ثائرتي وقلت لنفسي: لأعكرنَّ مزاجها، رددت بحدَّة:

ـ أنتِ الآن في بيت رجل ولا تنسي أنه صديقي.

ولكنها صدمتني بقولها:

ـ أما أنا فلا يمكن أن أنسى حبي الأول...

هكذا دفعة واحدة، الملعونة تقول حبها الأول... الأول الأخير لا يهم، قيل قديماً أن جدتها «هنُّومة» هي

الوحيدة التي فلّت تصلّب جدي بغوايتها الشيطانية وتزوجته على أم أولاده، قلت مدارياً ما يعتمل داخلي من مشاعر الرغبة:

ـ الذي فات لا يمكن أن يعود، وأنا أخاف الله.

ـ عيني على التقوى التي حلَّت عليك، سأنتظرك الليلة.

قالتها بثقة وتحد.

استندت إلى الحائط ورأسي تدور بعنف ثم انصرفت.

. . . . . .

. . . . . .

في الليل تتكالب شياطين الأرض قاطبة على القلب الجامح

تمدّ له مشاعر الرغبة المحرَّمة خيوطاً ورديَّة

تحيط به وتهد هده برفق ساحر

فينخرط في رقصة رَعْنَاء

يرسل إشاراته الحمراء مع دفقات الدم المتتابعة إلى مركز اللَّذة فتتلبَّسه الحمى

وتدور المعمعة:

ـ اذهب.

ـ لا لن أذهب.

ـ اذهب.

ـ لا . . .

﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلَّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون، ولقد همَّت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المُخْلَصِين﴾.

وإذ تنحسم المبارزة ويبرد القلب
تتهطَّل على الجسد السكينة
وتزمِّله بالكَرَى
يصحو وعلى خدَّيه خيطان دقيقان من ماء مالح مُطَهِّر. . .

* * *

على أنقاض الجزء الأكبر من دوَّار الصوالحة ارتفع بيت أبي شهاب إلى عدَّة طوابق. . . جهَّز هو لنفسه الطابق الأول وكدَّسه بالأجهزة الحديثة والفرش العصرية المستوردة.

وضع تلفازين ملونين في الشرفة الرحبة، واحداً لعياله، والآخر لعيال الناحية، الرأس بقرشين (ارتفع السعر بعد ذلك إلى عشرة قروش) أما الستائر المزركشة فقد آثرت أم شهاب على عكس خلق الله أن تضعها على النوافذ من الخارج. . .

* * *

مُعَلقة محفورة على جدارٍ لم يسقط بَعْدُ . . .

رُبَّمَا آتِ إليكمْ ذات يومٍ
حاملاً كلَّ المواعيد القديمةِ
عابراً صمتَ التواريخ البليدةِ
رُبَّمَا يعرفني البعضُ فسيمايَ عَلاَمَة
رُبَّمَا يَأسِرُنِي البعضُ ضَمادَه
فاعرفُوني . . .
قَبْلَ أن تَطْغَى الغيومْ
أنا لا أحملُ سيفاً أو رصاصاً
بل ولا أعرفُ سحراً
مبضعي اللفظَ ومصباحي الحقيقة
يا أحبَّائي أصيخُوا
رُبَّمَا آتِ إليكمْ ذات يومٍ
فاعْرِفُوني . . .

* * *

«**فصل في الما بعد . . .**»:

هدأت ثورة النار في أتونها الحي، وأتت خيوط الماء المطهِّرِ على البقيَّة الباقية منها، أمسك بالكتاب الحقِّ وقلَّب صفحاته، ذهل إذ تلبَّست أعماقه نورانيتها، أين كان؟؟

ولماذا لم ينتبه طوال السنوات الثلاثين الماضية؟؟

في بداية التحول المفاجىء كانت ثمة نوازع تنتابه،

فيتأرجح بين مد وجزر، لكنه بعد زمن قليل ارتدى الأبيض وترك شعيرات تنتشر على صدغيه وذقنه بلا انتظام تطول، هجر الصحاب القدامى وكل ما يتعلق بتلك الصحبة من انحرافات سبق القول فيها، وارتاد مجالس الثقات من رجالات العلم في حدود قريته والقرى المجاورة، فاستفاد وأفاد كَدَمٍ جديد داخل لتوِّه في الساحة التي لا حدود لها، في شهور انتهى من قراءة كل كتب مكتبة القرية، ثم انتقل إلى المكتبة الكبيرة بعاصمة المحافظة حتى صار مألوفاً لدى موظفيها... كان يناقش بأدب ويختزن مميزاً مغربلاً ما يدخل رأسه من قضايا وأفكار.

في مجال عمله دقَّق بحسم حتى ضجَّ المستفيدون وتكتَّلوا ضده في جبهة واحدة بعد أن كانوا أشتاتاً متنافرين بسبب القسمة الحرام المنزوعة قسراً من لحم الذين أنهكت البلهارسيا وشتَّى أنواع الأمراض المعروفة وغير المعروفة قواهم وعافيتهم.

قال كبيرهم:

* أضحى ابن... خطراً علينا ولا بد من إزاحته.

ـ ولكننا لم نستطع الإمساك بشيء ضده...

* ابحثوا في أوراقه القديمة.

ـ بحثنا... ولكن الملعون كان حريصاً ولم يترك أي شيء يدينه...

ـ كيف؟؟

* ضعوا في بيته خلسة ما يورطه.

ـ ولماذا لا نعرض عليه ما يسكته؟؟

* غبي.

* هب أنه رفض وورَّطنا نحن... ماذا نفعل؟؟؟

. . . . . .
. . . . . .

أجمعوا أمرهم...

وفي ليلة ظلماء ممطرة حملوا ما قَدَّرته لهم شياطينهم وزيادة ورموه في باحة داره، لكن عين الحقِّ ساهرة...

في التحقيق اكتُشف أن النوعية المضبوطة لم تدخل مخازن الجمعية من شهور، وأن الكمية السابقة صُرفت كلها، وبمضاهاة الوارد بالمنصرف المسجَّل في الدفاتر الرسمية وبطاقات الأهالي لم يظهر أي عجز أو زيادة...

من أين جاءت إذن هذه الكميات الكبيرة؟؟؟

بالبحث والتحري تبيَّن أنها مشتراة من تاجر معروف بالقرية المجاورة...

من اشتراها؟؟؟

فلان وفلان وفلان...

أليس هؤلاء هم أصحاب البلاغ المقدَّم ضدَّه؟؟

نعم هم.

!!!!!!!!!!

(يُعاد التحقيق في الواقعة، ويُخلى سبيل المدَّعي عليه... لعدم ثبوت الأدلَّة، ويُحوَّل الآتي أسماؤهم إلى نيابة الأموال العامة... ... ...).

قال الذين كانوا معه بالأمس مثلما قالوا من قبل:

جُنَّ ابنُ...

ولهذه حكاية أتى أوان سردها:

* * *

obeikandl.com

«حكاية الشاعر والعمامة والمدَّاح ذي الصوت النقي» «صفحة من مذكرات مفقودة»:

الشعر قديم قديم في دمي، ولا أدري من أين تسرَّب إليه ومتى؟ فلا للعائلة ماض شعري عريق، ولا النشأة بشاعرية، قال لي أبي ذات يوم:

* أراك يا بني تسهر الليل كله ـ بارك الله فيك ـ هل تقرأ القرآن؟

ـ لا يا أبي... أُقرض الشعر.

* فأر أنت إذن...

ـ أقصد.....

* إقرأ شيئاً مما تقرض.

أسمعته قصيدة عاطفية جديدة فقال: ومن «هند» هذه؟؟

قلت: اسم...

قال: حضرتك «عامل مواوي»!! إن لم ترحم نفسك فارحم جيب أبيك، احسب كم تهدر من الكيروسين والشاي على هذاالكلام «الفاضي» في الشهر...

(المواوي: شاعر شعبي يدور على بيوت الفلاحين ساحباً وراءه حماره مادحاً كل من هب ودب في مقابل قرش أو قرشين بالإضافة إلى حقِّ الحمار من العلف، بصفات لا تتوفر أبداً في الممدوح، كأن يقول للضرير مثلاً: «يا بُو العيونِ الصَقْر» أو يقول للمقعد: «خَطَاوِيكْ فَرَسْ رَهَوَانْ»، وما شابه...)

شغفت بالغناء طفلاً ومارسته صبياً ـ لا تربطني بالمناسبة أية صلة بالمطرب الكبير «صالح عبدالحي» ـ كنت أرتب ألفاظاً مسجوعة وأنشدها على طريقة جهابذة الإنشاد الديني في القرية، عبدالغني البلتاجي ـ طيَّب الله ثراه ـ وعبد العظيم الهمشري ـ صاحب الأداء المميز ـ والسيد عبدالبديع ـ تلميذ الاثنين معاً.

سمعت الشيخ أحمد المداح ـ الصوفي الطيب ـ يقول بعد أن سمع إنشادي في حلقة الذكر: الولد حنجرته حلوة لكنها تحتاج إلى دُرْبَة.

وبسبب هذه المقولة لبست عمامة وأخذت عهداً وركلت سنة دراسية كاملة ـ لم أدخل امتحان الثانوية العامة في ذلك العام لانشغالي بتدريب حنجرتي على تائية ابن الفارض الكبرى تنغيماً وغناءً ـ أول أغنية لي ما زالت عالقة في ذاكرة الأصدقاء إذ كلما ذُكر أمامي الغناء ألحُّوا أن أغني

أغنية «البلبل» انتشرت هذه الأغنية في الناحية وفي مدينتين كبيرتين على الأقل، فقد سمعتها بأذني في شارع مزدحم من شوارع طنطا التجارية تنطلق بصوتي من جهاز تسجيل وضعه صاحبه أمامه على الدرَّاجة، ولاحظت أنه يهز رأسه منسجماً معها غاية الانسجام، لكنني لم أستطع التعرُّف عليه، أما المدينة الثانية فهي قاهرة المعز بشحمها ولحمها، إذ حدث أن اشتركت في إحدى المهرجانات الوطنية الهامة التي يحضرها أكابر البلد جميعاً، وفي ساحة «امبابة» الشعبية الواسعة احتشد المشاركون ـ أربعة آلاف على أقل تقدير ـ بعد التدريبات اليومية وطلبوا منِّي الغناء، تقدَّمت تحت ضغط الحاحهم وأمسكت بسمَّاعة مكبِّر الصوت واندمجت في الغناء، وعندما وصلت إلى فقرة مؤثرة انفتح صمام خزَّانات الدموع في عيني فانهمر غزيراً، انسحبت مسرعاً بطريقة درامية وسط الهتافات المدوِّية، وبعدها صرت علماً، ولي مع الغناء حكاية طويلة انتهت بانضمامي مطرباً هاوياً في إحدى الإذاعات المحلية الخاملة الذكر لشهور، ثم اعتزلت!!

لكن الغنائية سيطرت على كتاباتي زمناً، في البداية بهرت بالرومانسية فقرأت شيلي وكيتس وبيرون وردذورث وناجي وغيرهم من الشعراء الذين يمجِّدون العاطفة ويحتفون بها، وما زلت أذكر أول قصيدة عاطفية مكتملة ـ

كتبتها في الخامسة عشر ـ معتزّاً بها ومحبّاً لهذا البيت منها على وجه الخصوص:

خَلِّي التَّجَنِّي يا (. . .) فإنني
من بعد هجرك لن أقولَ تعالى

وبانت (. . .) ولم أقل لها تعالي لأنها لم تكن تعرف أي شيء عن هذا التَّجَنِّي المزعوم، إذ لم تكن هناك (. . .) بعينها، ولكنها العادة العربية في الاستهلال ليس إلّا. . . ، ولما نُشرت القصيدة غضب أهل إحداهن غضبة مضرية واتهموني بأنني ألطِّخ سمعة وشرف العائلة الأثيل بمدادي الأفحم سواداً من الليل البهيم ، وأرسلوا رسالة دامعة إلى الصحيفة التي نشرت القصيدة، وطالعت ذات صباح ردّاً من المحرر وقف له شعر رأسي وضجَّ بسببه الدم في عروقي وكاد ينعتق ـ لولا رحمة الله وعنايته ـ مع حبَّات العرق:

(ومن كان يدرينا، على أي حال ـ لقد وضعت نظرنا على هذا المراهق الذي لم يراعِ ظروف وعادات قريته. . .)

وكنت أنا هذا المراهق الذي وضع الأستاذ المحرر نظره عليه، لكنه على ما يبدو كان أرمد، فقد نشر لي قصيدة جديدة في الأسبوع التالي مباشرة، ولم تظهر (. . .) أخرى لتدفع الأذى عن الشرف الرفيع، ولم يُرق والحمد لله

على جوانبه الدم ولا حتى الماء، قال غبي القرية الفضولي بعد أخذ ورد وتقليب للأمر على كل الوجوه: هذه القصيدة اعتذار بَيِّن لها عن القصيدة الأولى والمعنى في ـ جوف!! ـ الشاعر.

وكانت حكاية طويلة ظل صداها يدوِّي لسنوات...

حاشية: (بعد الاطلاع على دفتر المواليد الرسمي تبيَّن أن بقريتنا مائتين وخمسين «...» عدا النازحات والساكنات المدن والمتزوجات من أغراب والمطلقات، عشرون منهن على الأقل جميلات وفي سن الزواج)

قيل: جُنَّ ابن صالح... لبس العمامة وهو... ولَوَّت... (فقرات مشطوبة...)

الدرب طويل، والقلم عنيد، وحياتي مليئة بكمٍّ هائل من المنغِّصات والمقالب وحسبي ما ذكرته منها في هذه النبذة المقتضبة عن شاعر ومغنٍّ ومحبٍّ جوَّال جَوَّاب في شقوق وأغوار نفسه المدلهمة...

* * *

جُنَّ ابن...»!!!

لكنه لم يأبه لقولهم وانغمس بكُلِّيَّته في الطريق الجديد يقرأ ويفقه ويُجمِّع، لم يكن وحده، كانوا ثلاثة ثم أربعة ثم...، حتى أضحت ظاهرة أقلقت القابعين على المقاعد

الوثيرة خلف الطاولات الفخمة، كان ذلك بعد نجاح ثورة الرايات السوداء في الجانب الشرقي البعيد عن القطر. . .

* هل وصل المدُّ إلى هؤلاء الأجلاف القرويين؟؟

ــ نعم وصل، ولنحاصره قبل فيضانه.

وجاءه مسئول القرية منزعجاً وهمس في أذنه:

* لقد ركبت يا ابن أخي مركباً صعباً، دعك من هذه الأمور التي لا شفاعة فيها. ويتذكَّر مقولته الأولى بعد العودة من المدينة، فيبتسم ابتسامة ذات مغزى ويردد: «بل قالوا مثل ما قال الأولون»

* الأمور تسير على غير ما يرام، فارحمْ شيبة الوالدة وارحمنا، سيهدمونها على رؤوسنا جميعاً.

ــ «فَكَأَيِّنْ من قرية أهلكناها وهي ظالمة، فهي خاوية على عروشها وبئر مُعَطَّلَةٍ وقصر مَشِيد»

* كنت تتعاطى السياسة فقلنا سورة شباب، ودخلت في. . . فقلنا نزوات، فما الذي حدث لك؟؟؟

ــ ﴿إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء﴾

* كُنْ وحدك ولا تهلك الآخرين معك. . .

ــ ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

* يا ابن أخي أفق من وهمك الطويل وابحث لك عن مدخل آخر قبل أن تضيع، أنهم لا يرحمون...

ـ ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

. . . . . .

. . . . . .

في الهجمة التتارية التي لم يسلم منها اتجاه، سيق مع الكثيرين من رفاقه وأودعوا مع القتلة واللصوص وتجّار السموم في السجن الكبير الذي قيل ذات يوم أنه سَيُهْدَم لتُبنى مكانه مساكن إيواء للمشردين والتائبين والعجزة، وقد اكتُشف في خضمِّ الهجمة أنه رُمِّمَ وجُهِّزَ فصار على أحدث نظم الإصلاح والتهذيب من وجهة نظر السائرين على عكس ما تشتهي الأمة.

في الداخل اتّسعت الدائرة وحدث التعارف والتكاتف رغم القسوة التي لا يستطيع قلم مهما أوتي من البيان وصفها.

«ونادى فرعون في قومه، قال يا قوم أليس لي ملك مصر»؟؟

قالوا: بلى.

قال: فأتوني بهم مكبَّلين.

قال قائل:

﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً﴾.

ـ ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾.

﴿فعصى فرعون الرسول، فأخذنـاه أخذاً وبيـلاً﴾..

هوى، وهوى معه من هوى.

﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾...

.. ..

.. ..

بعد المحنة التي لم تدم طويلاً خرجوا أكثر قوة، لم يرضخوا للمستجـدات الداعيـة إلى تكبيل القـطر وتكميم الأفـواه، وانخرطـوا في أعمالهم ينجـزون في صمت مـا عجـزت عن إنجازه مؤسسـات رسمية كبيـرة في سنوات، يحاولون بنـاء ما انهـدم، ويصلحون مـا كان على وشـك الانهيار، غير ملتفتين إلى ما يحاك خلف الستائر الحـريريـة من مكائد وحملات تشويه ووسائل قمع جهنمية..

نحفت الأجساد واتقدت العقول

لا رئيس ولا مرؤوس

كلهم سواسية

وأمرهم شورى بينهم

الشارع الطويل مزين بالأبيض الناصع

والأمل الأخضر قاب قوسين أو أدنى...

.. ..

.. ..

.. ..

أما بعد . . .

العالم يمور من حولنا ويخرج من جعبته أشياء عجيبة نستقبلها بفتور يسبقه رفض، ثم تنقلب العملية فجأة إلى شبق استهلاكي مخيف يخترق الجيوب والعقول ويستنزفها، ولفظة «فجأة» هنا تعني أن العملية لا يمكن ضبطها على أي مقياس علمي، يحدث هذا مع الآلة بمسمياتها المختلفة دائماً، وكثيراً مع النظريات الجديدة في الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والأدب و. . . و. . .، وخلال هذه العمليات الثلاث التي تستغرق سنوات طويلة تظهر مخترعات ونظريات جديدة وتتراكم دون أن نستوعب هذه أو تلك، والمتصفح لمناهجنا الدراسية يرى العجب العجاب، إذ أننا ندرِّس نظريات وقوانين قديمة على أنها نهاية وآخر ما أنجز العقل البشري بالرغم من ظهور أجيال جديدة من هذه النظريات والقوانين أكثر دقَّة «خارجة منها وعليها»، وهذه الحالة المتغلغلة في صميم حياتنا العلمية والنظرية أقصد هذه الظاهرة الخطرة أنتجت بلا أدنى شك أجيالاً هشَّة لا تصلح أساساً كقاعدة لتطور ما، وقد يتصدى متصد ويقول:

أي ظاهرة خطرة تلك التي تتحدث عنها؟ نحن بخير وكل ما تقول محض افتراء... ألم تسمع عن فلان الذي اكتشف وزيد الذي اخترع وعمرو الذي أبدع وابن النفيس وابن رشد والفارابي وجابر وابن فرناس و... و...؟؟؟

هذه النظرة الضيقة يتصدى لها متصد آخر قائلاً: نحن نقدِّر دور هؤلاء ولكن معظمهم لا يدخل زمنياً في إطار ما أثير قبلاً، ثم ألست معي في أنها حالات فردية لم تكوِّن امتداداً يُذكر - بمعنى آخر - ليس لها صفة الظاهرة السائدة شأن الحالة الجمعيَّة الممتدَّة عند الآخر...

وقد يستطرد المتصدي الأول ويقول مدافعاً: ولكن الآخر الذي تقصد أخذ عن هؤلاء باعترافه ثم طوَّر، ولا ينكر ذوو النهي أن لنا فضل السبق وهذه ميزة عظيمة لو تعي...

وندخل في نظرية «فتح الباب» وتعني تبعاً للجدل السابق أن دورنا لم يتعد فض الأقفال، ثم وقفنا على الدرج الخارجي نعاين دخول الآخرين الذين أعملوا عقولهم بجدية ودأب، فاكتشفوا ما بالداخل من أسرار مدهشة خرجوا بها على صورة سيارة وطائرة وتلفاز وكومبيوتر ورواية ومسرحية وقصة قصيرة، وكل ما استطعنا المشاركة به بعد ذلك هو الترويج لمنتجهم المبهر عن طريق الاقتناء ثم الانسياق الكربوني الباهت في بعض الحالات.

وقد يظن ظان أن عقدة التفوق الحضاري عند الآخر هي محركنا لهذا الجدل (الداخل كما يقول أحدهم في فراغ الإنشاء غير المجدي) وقد يخرج عن طوعه ويرمينا بعدة اتهامات مثلما يحدث دائماً في كل خلافاتنا النظرية التي تنقلب في مرحلة من مراحلها إلى ثارات شخصية، متناسين أن هناك خطراً عظيماً محدقاً بنا وبوجودنا ككل، وأن الفجوة الحضارية الهائلة التي تفصل بيننا وبين الآخر تزداد كل يوم اتساعاً، وأن بيوت العنكبوت التي نحاول بها ردم هذه الفجوة تقودنا إلى هاوية لا مخرج منها، وفي خضم هذه الحالة ينعدم الحوار المثمر وتحل محله قذائف الشعارات والاتهامات...

محركنا الفعلي الخوف من استفحال الداء الذي يؤدي إلى الاضمحلال المميت في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة.

وهذه الرواية ـ تبعاً للمنهج الذي أشرت إليه في مقدمة روايتي (كنوز قارون) تحاول فضح التهاون والاستسلام، والانشغالات الوهمية المعيقة للتقدم العلمي والفكري باتجاهاته الصحيحة التي حث عليها القرآن في آيات كثيرة:

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ البقرة

﴿أوَلم يتفكروا في أنفسهم﴾ الروم

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ الأعراف...

في الجزء الأخير من الرواية رصد لظاهرة التحولات الطبقية في القرية المصرية خلال عقد السبعينات، وهذه الظاهرة كان من نتائجها الملموسة والمعروفة لدى الباحثين، تركز رؤوس أموال كبيرة في أيدي أناس غير مسئولين فانجرفوا بها وجرفوا في طريقهم الآخرين تخبطاً وعشوائية، والأمثلة كثيرة، وقد ركزنا على بعض السلوكيات المرضية التي صاحبت هذه التحولات دون الخوض في التفصيلات الصغيرة شأن الأعمال الأدبية التي تنحو نفس المنحى، واكتفينا بما لا يتعارض مع فنية الرواية من وجهة نظرنا تاركين للقارىء فسحة من المشاركة. . .

التجربة جديدة، إذ تحوى في بنيتها أشكالاً أدبية وغير أدبية تنصهر كلها في العمل مكونة نسيجاً مغايراً للعادى المتعارف عليه، ولذا فالتعامل معها لا يكون بمنظور نقدي تقليدي، وهي ليست سيرة ذاتية بقدر ما هي تبيان وكشف لعالم وهمي يعيش على جوانبه ويستنشق ترهاته وخيالاته السامة قطاع عريض ومؤثر وجدوا فيه التعويض والعزاء عن الواقع المعاش في ظل الحالة الاقتصادية المتردية على كافة أصعدتها حتى أصبحت علة تستلزم منا العلاج الفوري.

جانب من جوانب هذه المشكلة يقع على النظم التربوية غير المخططة، والتي أنتجت كما قلنا أجيالاً هشة لا تصلح أساساً كقاعدة لتطور ما قوي، ما الحل إذن؟؟؟

جزء كبير من الحل يتمثل في مراجعة مناهجنا الدراسية مراجعة دقيقة وشاملة بدءاً من المرحلة الأولية ـ وهي في رأيي الأهم ـ وحتى المرحلة العليا، ذلك كي ينشأ جيل جديد قوي قادر على التغيير والإبداع المطلوبين، جيل غير مطعم بالترهات والتشويهات التي أرغمنا على تشربها صغاراً وكباراً، مستنيرين بما قدَّمه علماؤنا الأفذاذ القدامى في هذا المجال ومستفيدين من إيجابيات الحضارة الآنية، وليس من العيب في شيء أن نأخذ من الآخر طالما أنه لا يتعارض مع توجهاتنا، ولكن مسألة الأخذ هذه تحتاج إلى بصيرة تمحِّص، وحالما يحدث هذا سيكون الحال غير الحال.

فلننبش عن موطن الداء قبل أن يعز الدواء،

إذ لا مكان للضعفاء في أسواق الفلسفات والتشريعات الوضعية الظالمة..

وهذا هو الهدف من الرواية

والله الموفق لما فيه الخير...

ف.ف.ص

دبي في ١٥/١٠/١٩٨٥